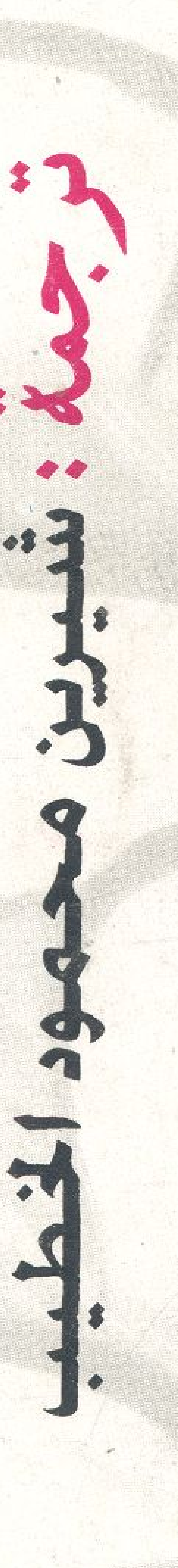
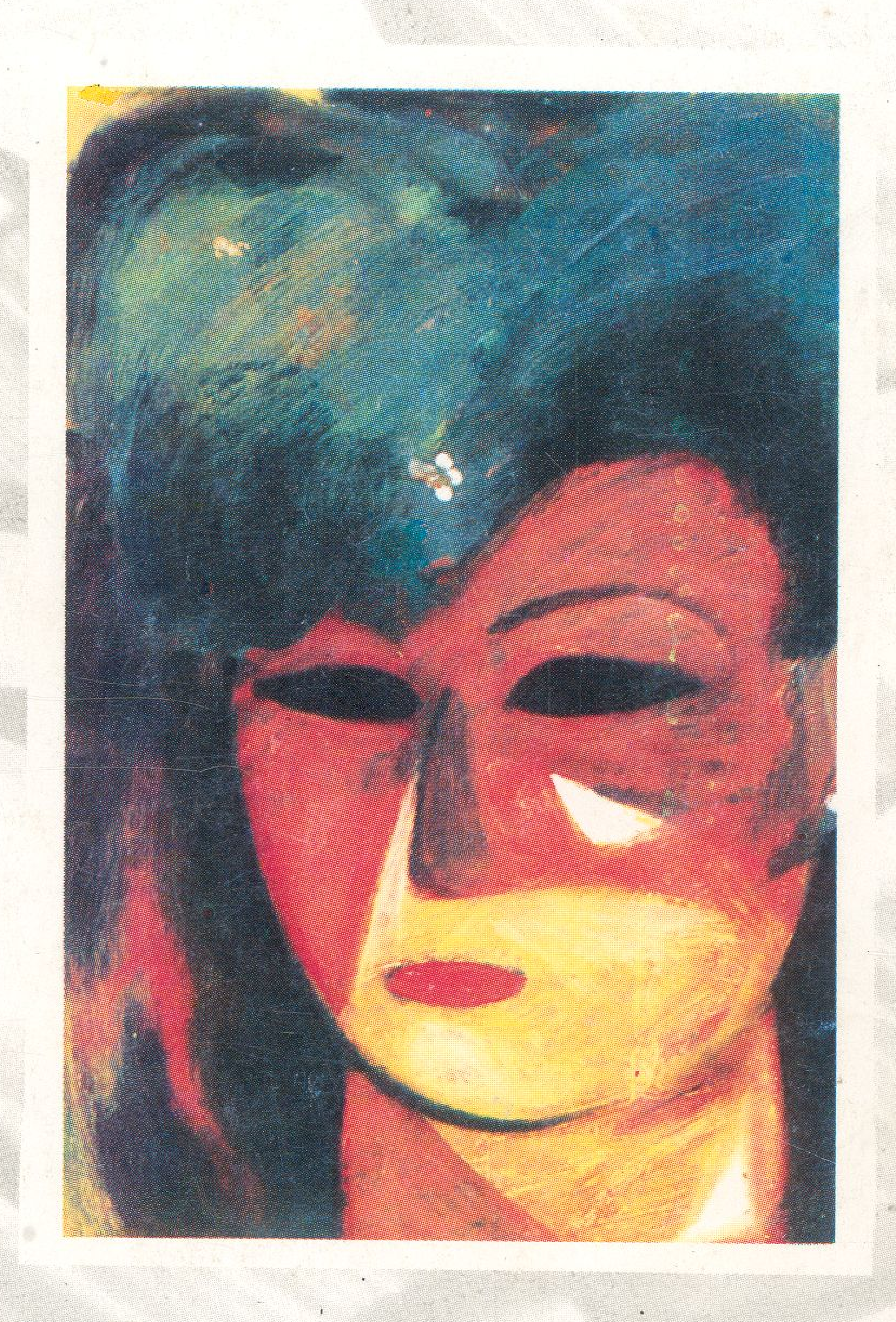
نهاية العالم هذا المساء

كاترين دو ريشو

49







الهيئة العامة لقصور الثقافة



آفاق الترجمة

آفاق الترجمة
نوفمبر ١٩٩٨





الهيئة العامة
لقصور الثقافة

نهاية العالم هذا المساء

للفنان عصمت داوستاشي

التصميم الأساس للغلاف

عمر جهان

رئيس مجلس الإدارة

د. مصطفى الرزاز

المشرف العام

على أبو شادى

رئيس التحرير

د. منى أبو سنة

مدير التحرير

محمد عيد ابراهيم

استشاريو التحرير

د. مراد وهبة

د. إبراهيم البحراوى

د. أحمد مستجير

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي : ١٦ ش أمين سامى - القصر العينى - القاهرة . رقم بريدى ١١٥٦١

العنوان الأصلى للرواية

C'est la fin du monde ce soir
Robert le chevalier, 1988

الطبعة الأولي
حقوق الطبع محفوظة

تقديم

ولدت الكاتبة «كاترين دو ريشو» عام ١٩٥٠م فى أسرة متوسطة الحال فى إحدى ضواحى فرنسا، ونشأت وسط مجتمع من الأشخاص.

كانت «كاترين» طفلة مميزة، تشتعل ذكاءً، فكانت ترقُب كل ما يدور من حولها وتختزنه فى ذاكرتها الصغيرة. وكان والداها يهتمان بها ويلاحظان عليها مدى شغفها واهتمامها بالقراءة، ليس فقط فى الأدب الفرنسى ولكن فى مختلف الآداب.

درست «كاترين» علم النفس عندما كبرت واستطاعت أن تتوغل فى النفس البشرية وفى عذاباتها وكتبت العديد من القصص وحصلت على جوائز متعددة رغم صِغر سنها.

ولقد اهتمت بالمرأة ومشاكلها وأحاسيسها: عندما تفرح وتحزن وتغضب. وقد جسدت كل هذا فى الرواية التى كتبتها عام ١٩٨٨، وهى «نهاية العالم هذا المساء».

وحازت على التقدير والإعجاب وحصلت على جائزة الكتاب فى فرنسا تقديراً لها.

إنها قصة تدور كل أحداثها في يوم واحد فقط، هذا اليوم يختلط فيه النور بالظلام والشمس بالقمر، لتعبر من خلال الرواية عن اختلاط وتداخل المعاني والأحاسيس داخل امرأة محطّمة صُدمت فى حبها حتى صارت أشلاءً متناثرة، تحاول أن تجمع أشلاءها، مع عرض لتلك الأحاسيس والتناقضات والصراعات التى يمكن أن تتمثل وتتجسد داخل امرأة واحدة، وكأنها نهاية العالم بالنسبة لها، فتأرجحت داخلها مشاعر الحب والكره، رغبة فى البقاء ورغبة فى الموت.

المترجمة

الفصل الأول

كانت تسير هائمة فوق الطرقات عصر يوم عندما لمحت أندريه أمامها من بعيد.

تأهبت للانطلاق لكنها لاحظت وجود سيدة بجانبه تبتسم أثناء حديثها معه... كان يجب أن يكون بمكتبه فى هذه السّاعة!

لقد أشعرها ذلك بالإهانة فقد كانت لا تريد أن تراهما وهما يسيران متشابكى الأيدى... وابتعدت مسرعة.

لقد أزمعت الرحيل قبل أن يحدثها أندريه عن تلك السيدة ومدى حبه لها. لسوف تكون بعيداً مسبقاً حينما يحين الوقت الذى يقرر أن يبوح فيه بكل شئ لها؛ لكنها... هذا المساء ليس لديها مقصد ترنو إليه. ربما لا تدرى إلى أين الرحيل أو لأن القلق كان قد استبد بها فلا تستطيع الشروع فى أى شئ. وحينما هامت على وجهها فى الشوارع؛ كانت لا تفكر فى أندريه ولا فى تلك السيدة التى كانت معه. وسلكت طرقاً متعددة ناسية كل شئ.

المدينة شبه خالية هذا المساء على وجه الخصوص. كانت تلمح بعض المارة وقليلا من السيارات التى تظهر عند دخول الليل حينئذ أدركت أنها ستشفى من كل شئ إذا أمضت الليلة بكاملها فى الخارج.

سوف تتنقل بين أحياء متعددة فى الأيام التالية. سوف تعود إلى البيت متأخرة بقدر استطاعتها؛ لكن أندريه لن يلاحظ غيابها!

عندما تلتقى به ستواصل الحديث باستمرار حتى لا تتيح له فرصة القرار القاطع. كانت تشعر أن شيئاً ما سيحدث لكنها لن تأخذ خطوة إيجابية مثل أن يحدثها أندريه. إن المشهد الذى تخيلته فوق الطرقات أصبح حقيقة ملموسة.

لقد انتهت العلاقة بينها وبين أندريه منذ زمن.

كان من الأجدى أن تتذكر جيداً ما حدث قبل عصر ذلك اليوم الذى رأت فيه الابتسامات المشتركة على وجهيهما. وربما يكون التغير الذى طرأ عليهما قد حدث فى نفس اليوم الذى رآها فيه أندريه لأول مرة. إنها لا تستطيع أن تلملم أو تعيد ما أتلفه الزمن؛ فهى لا تستطيع أن تتفوه بكلمات تغير بها مجرى حياتها. وساءلت نفسها: هل سيكون الألم أشد عند رحيله؟ وهل كانت ضعيفة عندما ادعت بأنها لا تعرف شيئا؟ كانت لا تخشى سوى اللحظة التى سوف يتحدث فيها معها! فى يوم من الأيام كانت مكان تلك المرأة... محبوبة مثلها، وبالتدريج أصابها القلق وأدى بها ذلك إلى الدخول فى ممر ضيق ذى إضاءة خافتة. كانت تريد التزام الصمت منذ وقت بعيد، والرحيل والاختفاء. لقد أدركت الوضع جيدا وعليه فلم يعد هناك سبب للاستمرار، ولا لسماع تبرير لوجودها هنا. كل ما عليها أن تستسلم للأمر الواقع. تعمدت الاختفاء فى أماكن بعيدة داخل المدينة التى كانت لا تعرفها حتى الآن. وكلما اجتازت مكانا ما، أو وقفت عنده هدأت من روعها. ولقد فرضت كلمة (مجهول) نفسها عليها بقوة

إذا ما صادفها شارع جديد أو وصلت إلى مكان لم تره من قبل. فضاء كبير آلت إليه؛ حال بينها وبين أندريه مثل السد. لكنه كالدواء. ولو رآها وهى تهيم فى الطرقات لما عرفها أبداً وربما وقع فى حبها مثلما فعل فى الماضى. كانت لديها الرغبة فى تحطيم الأزقة، وأحيانا أخرى، فى تدمير نفسها. وقبل ولوج الليل مباشرة، وعندما بدأت السكينة والهدوء يريمان على الشوارع؛ توجهت نحو المرفأ. وفى اللحظة التى شعرت فيها بالوهن يسرى فى أوصالها لم يبق فى ذهنها سوى العودة إلى البيت. وبعد مرور بضعة أيام على حديثها مع أندريه بصدد وضعها معه؛ تبدل كل شئ وأصبحت الأمور شبه واضحة. لقد لفت نظرها وجود ظاهرة معينة على الأشياء والأشخاص والمنازل، وعلى المدينة بأكملها. وأنها تستطيع كذلك الاستنشاق جيدا كما لو كان هناك تغيير قد أصاب الغلاف الجوى، وأصبح أكثر رقة من رقة الانعكاسات فوق الحرير أو الماء. هذه الظاهرة لم تكن سوى نظرات أندريه التى كانت تشعر بها فى كل مكان، وعلى كل شئ. لم يتأثر هو بشئ من الذى كانت تراه فبدأ كل ما كان عالقاً على ذهنها فى الذوبان.

بعد بضعة أيام سوف تفقد الإحساس بطعم الأشياء المحيطة بها، فهى لا تحاول تغييرها إلى الأفضل، ولم تعد تعرف مطلقاً ما الذى فقدته وما الذى سوف تجنيه عندما تتحول إلى شخصية أخرى، عندما تجد نفسها و تستعرض باستمرار نفس الصور فى مخيلتها... لقد شاهدت شوارع وصفوفا من المنازل وكانت

المدينة خالية بيضاء والصباح مبكراً جداً. الأبنية العديدة فى هذه المدينة تعلوها القباب. وعندما يحل المساء تعطى هذه القباب شكلاً جميلا للمدينة؛ فهى بشكلها الدائرى تبدو وكأنها جبال مصفوفة ومضيئة. وأجمل من ذلك تلك الكنيسة المائلة أمام نافذتها مباشرةً. وتخيلت المدينة مع وجود القباب التى لم تكن كذلك حقيقة، والأماكن التى ظلت كما هى منذ أن كانت طفلة صغيرة، والتى كانت تذهب إليها مع أندريه. لقد قاومت التغير ولكن الأماكن أصبحت مجهولة، وتهرب منها واحدة تلو أخرى.

كنا نرى تلك المرأة رابطة الجأش، ونظراتها متجهة إلى ما لا نهاية تجاه جذر شجرة، أو بقع من الصدأ تعلو أحد الأبواب أو الحوائط... إنها دائما فى حاجة إلى التنقل فى كل مكان بحثا عن مكان ما، أو لإعادة انتعاشها... وتكمل سيرها بامتداد الشوارع التى كانت تترامى أمامها بسهولة. لقد تركت، نفسها واقفة فوق المرفأ يلفحها ويحرقها الهواء المالح لساعات طويلة. كان عليها أن تبذل مجهودا لكى تتحاشى الأماكن التى عرفاها معاً، فهى بمثابة حياتها التى تفقدها الآن. خلال أيام سيتوحد أندريه مع الطرق والأماكن والمقاهى، ومع صيحات تاجر يقع محله على بعد شارعين من منزلها... سوف تجده فى كل شئ ولكن كل الأماكن ستنفر منه... وعليها أن تبحث عن مكان جديد لا يحمل آثاره. سيأتى اليوم الذى يعلن فيه عن رحيله، وسيحاول أن يجد المبرر لذلك. ستتظاهر بالإصغاء إليه. ستحاول أن تمنعه. إنه لن يخبرها بشئ، كما أنها لن تتألم. بأى شئ سوف

يرحل، وماذا سيتبقى له منها، وهل سيشعر بفقدان شئ؟ كانت تريد أن تفكر فى كل شئ وتتصور نفسها مكانه؛ لكى تضع حداً لهذا الخبر الذى لا يصدقه عقل. إنها تنظر إليه وهو يولى ظهره للنور، وتفكر بأنه لن يكون هنا أبداً أمام النافذة مع إشراقة شمس جديدة. ولكنه اعتاد هذا المكان، وعلى هذا المنزل الذى لبثوا فيه مدة عامين... ومع ذلك سوف يرحل وهو يدرك أنه لن يرى وجهها فى هذا الوقت من ذلك اليوم. عندما يوصد الباب ويختفى؛ لن تتحرك من مكانها؛ ولكن ألماً شديداً سيجتاح صدرها... سوف يبدأ بنقطة احتراق ثم ينتشر تدريجياً حتى يخرج من جسدها مؤذنا بنذر الانفجار. إن حزنها انتظار مجنون، وخبر انفصالهما لم يكتمل بعد... ولكنه متوقع، وحىّ لم يمت؛ وعلى ذلك ترى فى مخيلتها أن قوامها لا يتعدى كثافة ريشة، وأنها شبه متواجدة... لكنه هو... سيدخل فى نور جديد... نور حقيقى هو نور الحب. من أجل ذلك رحل... رحل لكى لا يبقى وحيداً أبداً؛ فهو يملك العالم بأسره، ولن يحبها بعد؛ إنه مشغول الفكر باللقاءات الجديدة القادمة، ولن يعيش معها فى نفس المكان بعد الآن. من أين جاءت له الثقة بأنه يحب وأنه محبوب، عندما قرر الرحيل عنها؟ لقد أيقن ما الذى كان يفتقده معها ولكنه أوشك على تبديد كل شئ... فمن غير المعقول أن تصبح شيئا مهملاً فى حجرة ولكن هلعها سينتهى إذا خرجت؛ لذلك كان يجب عليها أن ترحل! إنه لن يستطيع تحديد مكانها فى تلك الأرض الشاسعة، ولن يعرف أبداً ماذا تفعل. كان يجب

عليها أن تهرب وتختفى ولن تعانى أبداً... هذا هو الحل الوحيد. لن يستطيع الاستدلال عليها أثناء انشغاله بحبه للأخرى... فلن تصل أخبارها إلى مسامعه أبداً. ولكن سيكون من الصعب عليه أن ينساها. سيكون مضطراً للتفكير فيها. أن تكون فى هذه المدينة أو فى مدينة أخرى، بشكل أو بآخر، سوف تكون على وجه الأرض فى هذا المساء. ركبت القطار الذى أقلها قرب الحى العربى الذى يقع عند المحطة الأخيرة للخط. واصلت السير. لم يكن مشهد الغروب يثير اهتمامها بهذ الدرجة؛ ولكنها تستطيع أن تؤرخ هذا اليوم بأنه هو اليوم الذى رأت فيه الشمس وهى تغرب... هناك اللون الأصفر، والأزرق الذى يحاكى لون البحر، وسحابة مبهجة تعلو الطريق المتجه إلى اليمين، والأرصفة غير الممهدة. توقفت وسط المدينة وما بها من رغبة فى مقابلة أحد. كانت على يقين بأنها ستبدر منها تصرفات غير طبيعية. سارت قليلاً دونما اتجاه معين وبدت الشوارع خالية من روادها فى السابعة مساء؛ لدرجة تصورت معها أنهم يعدون لحفل ريفى كبير. مرت أمام فندق «إكسيلسيور»، ودار القضاء، وأخذت تدور حول مجموعة من البنايات، رأت الحزن يُخيم عليها جميعا. ولكى تتحاشى الحركة فى منطقة تجارة السوق السوداء، سلكت طريقا أساسيا بين صفين من الأشجار. وهو طريق يحتوى على سهل بيضاوى الشكل مزروع بنخل يفصل بين ممرين مكشوفين... يؤدى الممر الأول إلى مبانٍ إدارية، أما الآخر فيؤدى إلى محلات فاخرة، ويحتوى أيضا على محلات الصاغة وبائعى

الجلود المدبوغة، وكذلك على دكاكين للحلوى، ومكتبة كما يوجد أكبر دارين للسينما بالمدينة: الـ «ركس» والـ «مارينيان»... كان اسم «ركس» منقوشا بالحروف الضخمة المنفصلة كما لو كانت توقيعا مميزا باللون الأحمر فوق حائط ذهبي اللون. لا تكاد الممرات تظهر للعين إلا من خلال مصابيح الدكاكين، والمصابيح المضاءة بغاز النيون. وعليه فقد كان من السهل أن يخترق النخيل لكن لم تكن إضاءته قوية بما يكفي لوصولها إلى الممرات.

صادفت العديد من الكلاب الهزيلة حينما كان لون السماء رمادياً غريباً. وجاءت الريح الساخنة لكي تدمغ غروب الشمس القلقة، وتضاعف من السكون. كانت هذه الظاهرة تفسر إحساسها بضيق الصدر في ليلتها هذه؛ وكأن شيئاً يُحاك في الخفاء. إن حياتها تسير بطريقة ميكانيكية وسوف تؤدي بها إلى نهايتها. وفي أمسية من تلك الامسيات وقد أسدل الليل ستائره، وجدت نفسها في مكان مجهول، بعيدٍ عن بيتها. حينئذ ينبغي علينا أن نتساءل: كيف استطعنا أن نبقي على قيد الحياة؟ وحتى الأشياء التي استطعنا تحقيقها، والأحداث التي عايشناها وكانت تبدو وقتها أنها ذات أهمية؛ لم يكن لها ضرورة أو منفعة. كان هذا الشك مصاحبا للنور الذي لم تتعود عليه، ولليل الذي كان يفرض نفسه من أجل مأساة. كانت تشعر في كل مكان من الفضاء بحركة الهروب التي تولدت من سطح الأرض. من جهة أخرى كانت تمشي منكرة العينين، تختلف عن كل شئ؛ لأنها فقدت كل شئ، من أجل البقاء في الليل؛ يجب ألا يوجد شئ

نتـمناه. وفـى الطريـق المؤدى إلى المـمـرات توقـفـت على شـاطئ البـحـر كـعـادتـهـا فـى الأيـام الخـوالـى. لقـد تـلاطمت الأمـواج وتحطمت. فى تلك اللحظة شـعـرت بالراحـة والنقـاء... تصلبت أقدامها ولم تعد بها رغبة فى التحرك.

الضـوضـاء تسـحق الفضـاء... توجهت برهة وكأنهـا لم تعش ذلك من قبل. وظـهرت فى جسـدها درجات من الألوان تقترب من زرقة الأمواج، كما يتداخل فيها ألوان الشـفق،... ولون الدماء... وأصبح جسدها كبرج متحرك بارتعاشة؛ ولكن الصخب ينخفض من حـوله وفى تلك اللحظة تطفو فى رأسـهـا هذه المقولة: «كـان يملكها من قبل». لقد وجدت سعادة بالغة الجمال ومن ثم فهى فى حاجة مستمرة لترديد هذه المقولة دون توقف. كانت تستشعر من خلالها كأن آخر يهدهدها ويحميها. ملأتها ثقة بأنها كلما استرجعتها فلن يحدث لها مكروه. كانت تشعر برغبة فى الصعود والهبوط، أما كلمة (من قبل) فهى بمثابة نهر طويل، و كذلك كلمة (كان يملكها)؛ صف طويل من الذكريات التى تسير على حافة زورق. كانوا يتقدمون ببطء والشخص الأخير يستعد للانصراف، والركب يستغرق وقتاً إلى أن يختفى فى الظلام. كانت تأسف لذلك ولكنه ذاب فى اللانهاية. توجهت نحو الممرات عندما اجتاحت رأسها أفكار أخرى... (يا الله؛ ما كل هذا الانتظار!)... كانت جملة صحيحة بدون رتوش. لقد عاودت التفكير فى أندريه مرة أخرى. إنها لا تستطيع أن تحيا بدونه، كما أنها لا تعترف بالعمر الذى عاشته قبل أن تعرفه. استخدمت

الطريق الساحلى للحظات حتى تصل إلى الطريق الذى يخترق الأشجار عند اتصاله بالممرات، مرت أمام المستشفى التى مكثت فيها بضعة أيام عندما كانت فى السادسة من عمرها. إنها مستشفى (سانت تريز) التى كانت مشيدة وسط صخور حمراء وعلى نوافذها ـ التى تشبه نوافذ سفينة عتيقة ـ ملح البحر. لقد تذكرت تلك الايام وكيف ظلت طوال أربعة أيام وهى فاقدة للوعى!

أخبروها فيما بعد أنها كانت مجردة من ملابسها وهى فى الفراش، وذات مظهر مخيف. لقد تقيأت كل ما شربته من الماء ولكنها تتذكر صوتا كان يسخر منها، إنه بلا ريب صوت أحد الأطفال، الذى كان يقاسمها الغرفة. كانوا فى العاشرة من عمرهم فوق أسرة صغيرة، مصنوعة من الحديد، ولها قضبان مدهونة بطلاء أبيض، أو فاتح الزرقة. هفا إلى خاطرها أيضا تلك الغرفة الفسيحة، والنوافذ المرتفعة التى يتسلل منها الضوء. فالطقس حار جداً؛ ولكن تلاطم الأمواج، والخطر الكامن؛ أوحى لهم بمشاعر الراكبين فوق سفينة وسط اليم وقد أرخى الليل سدوله... كان كل ذلك يحدث على وجه الخصوص عندما كان عويل الرياح يوقظهم. وصلت إلى الطريق الطويل الذى يحده كل من الممرات والمحلات، وعندما وصلت إلى حافة المياه تخيلت نفسها تمشى على الممرات وظلها الوحيد يشعرها بالخجل! كيف تتغلب على الوحدة، وتتحرر نهائيا من هذا العار؟ لقد شاهدت ظلها على الرخام الأسود الملطخ. كان الممر المكشوف غارقا فى الظلمة حتى أنها لا تستطيع أن تميز أى شئ حولها. سوف

تتـخطى بـخطواتهـا الحـدث وتقـصى عنهـا الحـواجـز التى لا تستطيع مسايرتها.

لكن حياتها سوف تتغير. إنها واثقة من ذلك، ولكن كل شئ انفض فـجـأة... ومن حين لآخـر كـان المارة يروحـون ويجـيـئـون؛ ولكنهم أصبحوا مـجرد خيالات تتحرك في سكون... كانت معتمة مثل الأشياء التى تحيط بها! الانعكاسات الصفراء فوق الرخام الأسـود؛ عـبارة عن خطوط من الأتربة تلمع بصـعـوبة. إنهـا فى الصـحـراء؛ فالتربة الباهتة هى رمال الصـحـراء، الأعمدة أيضـا مثلها مثل الرمال ولها القدرة على التمدد فى اللانهاية. شعرت برغبة فى التقدم بلا توقف فى فضـاء منتظم. هذا الممر الطويل المظلم كالبئر فى قفر يباب.

كانت سـوداء جافة مثل حشـرة... الوجوه التى مرت عليـهـا كان يعلوها الإعياء والألم، وفى اللحظة التى يقتربون فيها منها كانوا يتفرقون واحداً تلو الآخر كما لو أنهم انطلقوا كتلة واحدة؛ ولكنها تتفرق بسببها. إنها وحيدة، وحيدة تماماً، ولن يكون هناك عائق... ستـفعل كل ما تريد... أبعـدتهم عنها ربما بوحشية... تناقص عدد النساء كثيراً؛ الوقت متأخر... لماذا ينظرون جميعهم إليها عند مرورهم؟ ترددت للحظة، وبعدها استندت على الحائط. عندما اقتربوا منهـا خففوا من سـرعتـهم. كان من الممكن أن يبتسموا لها، وتمتد يدٌ لتستقر على كتفها؛ ولكنهم لم يدركوا سهولة ذلك! سيختلف الأمر تماماً لو هموا بفعل ذلك؛ فغالبية

الشباب المنجذبين لذلك الخيال الملتصق بالحائط هم أنفسهم الذين يضايقون النساء فى الشوارع... أما فى تلك الحالة فقد ثقلت خطاهم وانحرف مزاجهم. مضى وقت طويل وهى مستندة على الحائط. أصبح كل شئ مختلطاً فى رأسها. وإذا خرجت من منطقة الظل لتعبر المفترق الكبير... الطريق المزدوج المزروع بالنخيل، وإذا مرت فوق المنفذ ذى اللون المشرب بحمرة خفيفة لتصل إلى الشاطئ، سوف تأخذ طريق السيارات... لذلك يجب أن تخرج من الظل. كانت تظن أن النهار يكمن خارج دائرة الظل... يعاودها شعور بأنها فى فضاء لا حدود له. ستصاحبها الوحدة دائما نهاراً أو ليلاً! لكن هناك عالماً يموج بالضوضاء وهذا أفضل على أية حال. إذا ما حاولت أن تسبح مع التيار؛ فلن تسعفها الحركة. تعتريها رغبة ملحة بأن تظل الصخرة المتوارية كما أصبح حالها الآن. كانت مثل الحجر والليل يلائمها أكثر... وفى نفس الوقت تحولت إلى نوع من الحشرات الليلية... هيكل عظمى يقاوم بلا تنظيم... الحشرات عادة يحكمها منطق فى تصرفاتها... لقد تحولت إلى آلة من مادة أقل صلابة من المعدن. تستند دائماً على الحائط مع انحناءة للأمام. حاولت الخروج من حالتها؛ ولكنها كانت تشعر من أعماقها بالهلع المغلف مثلها؟ الآن... تدور بداخلها معتقدة أن مظهرها الخارجى سوف يتحملها، وإذا ما مالت قليلا سيكون ذلك مبعثا لتتأكد من أنها لن تنشطر أو تتمزق أو سينسكب ما بداخلها... إنها إناء مائل! بائسة، مسلوبة من كل شئ؛ لكنها لا تخاف أبداً من أى

شئ. كل ما يقوله المارة يأتى إلى مسامعها ولكن دون أن تتأثر به؛ فلا أحد يجرؤ على إبداء الاهتمام بها، أو توجيه الحديث إليها.

إنهم لا يعرفون ما كانت تفعله هناك، وماذا سيكون مصيرها... ولكنهم يعرفون جيداً أنها لا تشتكى من أى مرض عضوى. لا يجب عليها أن تركز النظر على أى شخص مهما يكن... من الممكن أن تتحول أفكارها إلى مادة فالشخص الذى سوف تركز نظرها عليه سيكون له وجود وسيصبح الاثنان متصلين بطريقة خطرة ولا نهائية... يجب ألا يكون هناك اختلاط بينهما وبين كل المادة... ستحاول الهجوم وربما تفقد نفسها تماماً... كانت أفكار عديدة تطوف فى رأسها، وتقض مضجعها وتبعد عنها السكينة... إنها تستطيع الوصول إليهم إذا تحركت أو خطت خطوة صغيرة؛ إنها لا تجاوز أحداً كما أنها لا تمتلك أحداً. إن نظرة واحدة منها ستبعث الاطمئنان فى نفوسهم ولكنها كانت تريد أن تستشف نظراتهم وأجسادهم أيضاً. لو رحلت عبر الشارع الساحلى العريض فلن تستطيع إيجاد الممر المؤدى إلى البحر... كان بعيدا وصعبا وسيكون فى الغالب حاراً. التصقت تماماً بالحائط؛ وعليه فلن يستطيعوا الإمساك بها. كانوا يشعرون بالخوف، ويجب أن يصيبهم الفزع منها لفترة طويلة، وأن يتجمدوا عند رؤيتها وهذا كاف لتطهيرها. لقد أصبحت على فوهة الغموض والموت. مؤكد أنها تستطيع المضى إلى هناك... ولكنها لن تتحرك... يجب أن تتناساهم وتزوَرّ عنهم... فليتحملوا ذلك.. أشياء سوداء تتحرك فى كل اتجاه؛

إنها أجنحة العصافير التى كانت تهرب من عيونهم المنغلقة غالباً... الأجنحة تقاتل لتنسيهم الأصوات الخفية للأقدام، والظلال الهاربة التى تذوب عندما تميزها. كانت تتركهم ينزلقون ويختفون. إنها تستطيع أن تذهب إلى هناك لتلتقى بهم... إنهم لا يحبذون وجودها ولا مجرد بقائها على قيد الحياة. لم تشعر ببادرة تدل على أنهم يفضلون أن تتركهم بالقاذورات العالقة بجسدها. ولكن ما الذى يستطيعون منعه؟! لم يبق سوى تبديد النظر. منذ لحظة كانت تجلس فى الظل، يميزونها بصعوبة من الأرض السوداء. ما الذى يجذبها للضوء ولنور الصباح؟ من الذى يستطيع أن يبعث فيها الطمأنينة، ويقر بأنها تستطيع أن تعود مرة أخرى للحياة وأن المستقبل سيكون ملكاً لها أيضا؟ إنها تريد إثباتا من طائر، أو امرأة معتمة مثلها تستطيع أن تؤكد لها إمكانية ذلك. كانت لا تمد بصرها أبعد من الممرات؛ ولكنها تتذكر فقط ما كان يحدث من قبل على حدود تلك الصفوف فيما وراءها. الأماكن والشوارع المألوفة لها والتى تعرفها تماما؛ لا تستطيع أن تنكر وجودها ولكنه وجود خاص دون صدام ودون تميز... إنه خلود أبدى. فى تلك اللحظة لم تتعرف على نفسها إلا من الداخل... كانت تشعر بدوامات ودوران... وبأمواج تتلاطم على جسدها... أعطاها طعم الملح شعوراً بالغثيان. لو كانت تستطيع أن تعبر الغثيان إلى الموت سوف يكون ذلك قريباً! تمنت أن تعبر من واحد إلى آخر؛ فلم تعد سوى حشرة منهكة... انتظرنا موتها ولكنها لا تحيا... لا

يُعدّ هذا خبراً متوقعاً؛ فالنظرات المتجولة فى كل مكان احتوتها؛ ولكنهم ظلوا صامتين... كان جسدها مثل أجساد الموتى التى تجرها الخيول ذات العجلات... جسدها ملفوف بغطاء أبيض ولا أحد يستطيع تمييزه. لم يقل أحد حتى الآن إنها متحررة، وإنها تعذبت كثيراً من أجل هذا الواجب؛ ولكنهم صامتون دائما... نظراتهم الناقمة تتزايد باضطراد على العالم كله. فى تلك اللحظة تذكرت حوض الماء العكر، والعديد من السيدات اللاتى يتجمعن حوله يسلطن النظر إليه. تمنت أن تكون على مرتفع صحراوى كبير بلا ماء ولا أشجار... ولكن كيف تكون الحياة؟ لقد أسقط فى يديها، ولا يوجد حل... المارة لا يجدون سوى شكل جامد فى الظل. كانت تحاول أن تتحرك كثيراً ولكن بلا هدف.

كانت تسلك طريقا واحداً أمامها، تخطو خُطوة وتلحقها بالأخرى وهى متيقظة لكل حركة تصدر منها. لم يفارقها شعورها بأنها فى عتمة بل صاحبه حالة من الترنح؛ فهى تدون كل ما يدور من حولها دون اكتراث... خلال بضع ساعات سيولد يوم جديد وستظل كما هى بلا حراك، مطأطأة الرأس. كانت دائما تخشى الموت. لا تقاومه ولا ترهبه. إنها تخطط من مكانها لهذا الموت وهى هادئة.

وفى لحظة طرأ على ذهنها عبارة: «يا الله أى انتظار!»؛ فهى لا تجد عبارة تتناسب وحالتها أكثر من تلك التى سلحت بها جسدها الذى أصبح منيعاً. إنها تتمنى ألا ينتهى المساء أبداً.

وأين ستذهب عندما يبزغ النهار؟!

استمرار صدى تلك العبارة فى رأسها؛ شديد الصلة بوجود المساء. هلى سينتهى الأمر بموتها؟ ليس لديها شئ ثمين تحتفظ به؛ فجسدها كان مطروحاً على الأرض، ممزقاً، ذا لون رمادى وفقد الشعور بالحياة منذ وقت بعيد...

ومع ذلك فهى تحاول أن تهدئ من روعها برؤيته هكذا وستستمر على هذا الوضع حتى طلوع النهار، وستبحث عن مكان آخر منعزل ولكن كم من الوقت يتبقى لها حتى يطلع الفجر؟ لأنها تتخيل تلك اللحظة التى ستترك فيها هذا الممر. ستبسط قدميها مثل القطة، فيوحى لنا بأن هذا الهيكل لا يتعلق بشكل إنسانى... ولكنه مجرد طيف يعبر الطريق. وميض ليس أكثر وسوف تتلاشى سريعا. لم يتبق سوى أربع ساعات على الفجر. أربع ساعات للحياة وللتأمل فى نفس المكان على الأرض... لا يزال الأمر الذى ينبغى أن تقوم به بعيداً.

كانت فى نسيج الليل سعيدة بألا تكون سوى هذا النسيج. لقد فقدت كينونتها كنسيج جلدى... أذرع... أقدام وشعر. لقد اكتسبت صفة الليل. ولو حاولنا أن نتلمسها أو ندقق النظر فيها للاحظنا منذ الوهلة الأولى أنها تنتمى بشدة إلى الظلام. ستستريح من عبء وجودها، ولا يوجد ما يقال، وليس هناك مسئولية ترتبط بها... لقد اختفى كل شئ وامتصه الظلام. حاولت أن تقاوم المساء دون أن تشعر متى انتهى بها الأمر إلى

أن أصبحت كهيئة القلم، وأضفى الليل عليها نوعاً من الثقل والأحمال مما أصابها بضيق فى صدرها. لكن هذا المساء سيكون رقيقا مثل غطاء على رأس سيدة، غطاء بلون البحر الأزرق ولن ترنو إلى ذلك إلا عندما تمتلك حريتها. ويتطلب هذا استمرار وجود الليل لكى تحقق ما تتمناه، وهو أن تظل فى الظلام... وإذا تصادف سقوط ضوء فوقها لسلطت عليه مادة أكثر تعقيداً من الليل نفسه. إنها صامدة، وقد فقدت الشعور بالألم نهائيا. لقد غُلف جسدها بغشاء رقيق من غبار الأرض المشبث بها والذى تشبّع بنفس لون عينيها المفتقد للبريق... لم تعد النظرات من حولها قادرة على اختراق كيانها؛ لأنها لن تتعرف عليها أبداً، وبذلك سيتركونها ساكنة لا يتوقعون منها أى شئ. لوأن الليل يستطيع أن يلد ليلاً؛ لاستطاعت أن تمتلك القدرة لوأده بقدر صمودها!

يجب على تلك المفردات... التنفس والذكريات والحياة، أن تصبح خليطاً مكتملاً حتى النهاية؛ يفرز نسياناً تاماً، يحتويهم الواحد فى الآخر لكى يتحدوا فى مادة واحدة، سوداء مثلا لون فحم الانتراسيت الرمادى، أسود كالخطوط الغليظة التى تحيط بهيكل امرأة على لوحة زيتية من الشمال. ولكن يظهر لون آخر على اللوحة وهو الأزرق، فاللون الأسود تحول إلى زرقة مائلة للسواد مما أعطاها الإحساس بتكاثف هذا اللون. إنها لم تعد سوى مادة متحدة تماماً دون انفصام... لن يعود هناك نظرات أو استنكار.

الفصل الثانى

وبعد مرور ساعتين من الزمن، لم يتبق منها إلا خيال ينبعث منه القلق، سوف تصاب بألم عندما نوجه إليها الحديث... من الممكن أن نقتلها، نطرحها أرضاً أو نطردها!

كان بعض المارة أثناء مرورهم بجانبها يتهامسون وهم يوجهون النظر إليها ولكنهم لا يتوقفون.

هناك شئ من الرفض فى شبح تلك المرأة. فى وقت متأخر جداً من الليل؛ شعرت بأن أقداماً تتسلل بهدوء إلى جانبها. كان رجل على الأرجح ويبدو عليه الرغبة فى إيذائها والانصراف سراً. أهى محاولة لاغتصابها؟!

لو رأى نظراتها لفعلها. من الممكن أن يتمادى فيما كان يصبو إليه. ولكنه آثر الرحيل دون أن يصدر منه صوت أو إشارة.

كل ما كان يدور حولها لا يزال قائما على حاله. وحضورها ملحوظ فى هذا الفضاء، ولكنها ليست موجودة بداخله.

انتابها شعور باستعراض كل شئ أمامها وكأنها تعرفه معرفة تامة مع أنها فى تلكم الساعات كانت تتجرع الرعب.

لم يكن هذا الرعب مكوناً من مادة معينة؛ ولكنها تمتلئ به ويطغى عليها. هل يدل على أنها مازالت تتحرك وتستمر وأن تسأل نفسها من تكون؟. إنها من النسيج الذى يحيط بها. شعرت بأنها على حافة الموت ولم يعد بداخلها أية تمزقات. إنها

أمام الموت مباشرة ويسودها اعتقاد بأنها داخل حالة الموت؛ بمعنى أنه لا شئ داخلها يستطيع أن يتصدى له. وكلما تخيلت أنها تجتاز بضع مئات من الأمتار التى تفصلها عن البحر، لكى تصل إلى المنطقة الصحراوية؛ يتملكها شعور بأنها تخطو الخطوات الأخيرة للموت. ولو قامت بأى إيماءة لتدخّل الناس واصطحبوها إلى المستشفى. ولكنهم لم يجرءوا على الاقتراب منها لأنها ظلت بلا حراك... لقد تركوها فى الظل. وعندما يُخيم الهدوء تحتها ولا يأتى لمسامعها أى ضوضاء، كانت تضع رأسها فوق قدميها المطويتين تحتها. بدأت تعتقد بعد ذلك بأن شعورها بالانزلاق ينبعث من بدنها. كانت لديها الرغبة فى تلمس كل ما يحيط بها؛ لكى تتحقق ما إذا كان هناك أشخاص بالقرب منها؛ ولكنها كانت مشلولة! كان رعبها المغلف هادئاً ومتجانساً؛ فلقد هيمن الرعب عليها أكثر من الموت حيث كانت تشعر بأصوات وحركات فى الظلام. هكذا كان ليلها: كل جزء من الفضاء الذى يتملكها فقد صلابته ومادته وأصبح قريبا وجميماً جداً. فإن العالم لم يكن يهتم بها بهذه الدرجة لو لم تسع لذلك. وعند مرور سيارة، لاتتمالك نفسها من الضحك! ربما تحاول فى هذه اللحظة العدول عن فكرتها دون أن تدرى. بينما تزداد رهبتها كلما توغل الليل. لقد وجدت الضوضاء والوجود الخفى للأشياء والمارة المتأخرين، وأصبح الفضاء موحشاً. ينتابها شعور بالخوف من أن تقوم بتعذيبها آلياً.

شعرت بأننا سننتزع ذراعيها ونطرحها أرضاً إلى أن يتم

سلخها وسوف نتعرف عليها بأى جزء متبق من جسدها. سنقوم بالقبض عليها وننكس رأسها مع جذبها من شعرها، والإلقاء بها فى الركن. تنبهت لنفسها وأصبح رعبها واقعيا... سقطت بعد ذلك فى ظلام تام؛ دام استمراره لوقت غير محدد. وحينئذ تجلى لها شعور غامض بأنها شئ مضطر لعدم الحركة.

ولكى لا تفقد الارتباط بالأرض. كان عليها الاحتفاظ بهذا الإحساس إلى الأبد بل وتحاول مضاعفته. وبالتدريج سينتابها حالاتٌ متعددة ورغبة ملحة بعدم الاحتفاظ بأحاسيسها وأنفاسها. وعندما تشعر بالتغير فى حالتها وتتناسى وجودها فوق الأرض الباردة، يطرأ تحسن طفيف فى وضعها... سوف يتربص بها القتلة، ويعاودون الظهور ثانية وبقوة. إنهم هنا لتمزيق جسدها ولقد استطاعت أن تعثر عليهم وتألفهم. ولكنها لم تستطع تحديد متى كان أول لقاء... إنهم حاضرون بالفعل! لو حاولت النهوض وشاهدوها بوضوح لقتلوها. لقد تضاعف الحشد الذى كان يراقبها فى ذلك الوقت. وبعد لحظة فقدت الثقة ولم يتبق سوى قليل من الأشخاص المنتظرين خلف الممرات... عديدٌ منهم يحتفظ بآلة بين يديه، ويتلمسها بطريقة ميكانيكية. إنها على دراية بذلك وليس لديها الرغبة بالالتفات نحوهم. لم تتطلع للتعرف على قسمات وجوههم لأنها متشابهة. فهى على يقين بأنهم هنا لتنفيذ الحكم ولكن لماذا يتصرفون ببطء شديد؟ إنهم على ثقة بأنفسهم ولا يوجهون النظر إليها، وهى لا تخشى إلا الآلات التى بين أيديهم. حين حاولت النهوض مراراً، لم يبدُ

عليها إلا الرعب، وبعدها استبدت بها الحيرة.

لقد رقدت على الأرض، وجهها وجوفها فى التراب. فى تلك اللحظة أخذت شكلاً فوق الممر المظلم وكأنها مرتفع غامض لا تسهل ملاحظته فشعورها بالخوف كان رد فعل طبيعى لمراقبة الذين يتبعونها. لقد كانت ساكنة فى عداد الموتى. فهى تشعر باقترابهم من خلال احتكاك وأصوات أحذيتهم. بعد أن ظلت لوقت طويل ملتصقة بالأرض. شعرت فجأة بأن انفجاراً سوف يدوى فى المكان... حاولت إعطاء مهلة لنفسها لتهدئ من روعها ولكن الخوف الذى انتابها بشدة لم يكن بنفس درجة الرعب الذى تشعر به فى كل مكان. دُفعت بقوة إلى الأرض واضطرت مرة ثانية للنهوض. انتابها شعور بالسعادة وهى تخضع لتلك القوى الواهية كأنها خط واضح وخفى فى نفس الوقت. لقد غمرها هذا التيار الذى يصل الحالتين ويأخذ سمت السواد. استعارت هذا الشكل فى لحظة وتحملت جميع المواقف التى تستعرضها الآن فى رأسها والتمعن فى هؤلاء الأشخاص الذين يودون الانقضاض عليها مثل الفريسة.

فهى فى انتظار تلك الخطوات الماكرة الخفية، مع التدقيق فى أقدامهم وهى تختفى أثناء ركضهم أو عند الاقتراب منها.

لقد خالت أنها تسمع جلبة حشد ضخم جاء من بعيد لتدمير كل شئ. تبخرت جميع الكائنات دون تحقيق ما كانت تخشاه. أدركت أخيرا بأن الصور والتحركات نفسها تتوالى بانتظام.

كُلما تَهمّ بالنهوض، يتملكها الخوف الحقيقى للحظات قصيرة: وتجد نفسها محاطة بالسكاكين وبالأذرع التى تحاول الإمساك بها لكى تتمكن منها أكثر... وبوجوه مشوشة مخيفة.

فهى تعتقد أنها تدافع بقوة ولكنها تجد نفسها بعد ذلك جامدة فوق الأرض وأقدامها متصلبة ومكشوفة فوق ممر غامض. إنها متواجدة فى أماكِن متعددة فى نفس الوقت ولكن تحت سيف الموت.

تتسمع أصواتاً تصرخ: «سوف نقتلك يا بذيئة!»... أصوات رجال ثم أصوات نساء. أشكال متعددة. وظلال تنظر إليها لا تفارقها أبداً. إنها موجودة من خلالهم... هم الذين يعرفونها جيداً. يجب أن تكون ماكرة، و إلا سيدركون أنها استطاعت الاستدلال عليهم. فهى تتظاهر بأنها تجهل ظلالهم وهى على ثقة فى نفس الوقت بأنهم لن يغيبوا عن نظرها. لقد تملكتها الأشياء... ولكن كيف كان ذلك؟ لقد اقترفت شيئا خطيراً لكى نقوم بإيذائها إلى هذا الحد وكأنها مسئولة عن مأساة كبيرة! كرحيل العديد من الأشخاص بالموت... والفيضانات العديدة التى شهدها جنوب البلاد وأظهرتها الصور فى التليفزيون... وتخيُلها للعديد من حوادث السيارات القاتلة والانفجارات؛ لذلك علينا تدميرها مثل القنبلة المهلكة. إن عيون الرجال المحيطة بها تتلألأ ولا تتحول عنها ولو للحظة، ومع ذلك فإنها لا تستطيع رؤيتهم أبداً وجهاً لوجه، وتفسيرها الوحيد أنها تعرف قليلاً من الأشياء.

وفي لحظة ما تولدت هذه العبارة بوضوح: «سوف نفعل ما نريده!»

وبوضوح أكثر من ذى قبل صدر حفيف وحركات شبه مميزة. هل يلتفون حولها الآن من أجل هدف نبيل، وهل هى فى حصار؟

بدأت لتوها فى استعادة سكينتها عندما وصل لمسامعها صوت مجهد يقول:

«ينبغى أن تنتهى، وتختفى هى فلا ولم يعد هناك وقت!».

لقد اختفى الآخرون. ويجب الأخذ فى الاعتبار بأنها لن تسمح باستثارة مشاعرها. ومن الواضح أنها أكثر تماسكاً. قررت أن تظل مكانها، وتنتظر اللكمة التى ستودى بحياتها. يجب أن تحتويها تلك اللحظة الفريدة. فهى الوسيلة الوحيدة للانتصار والهيمنة عليهم. ومع تناسى الآخرين، تحاول أن تخفف عن نفسها اللحظة التى سوف تلقى فيها حتفها بطعنة خنجر تستقر فى جوفها. لقد انطوت على نفسها: وإذا أيقنوا معرفتها بمقصدهم وشعروا بعدم خوفها فلن يمسوها بشرّ. لقد جلست كثيراً على الأرض فى الممر الخالى المظلم منذ ساعات طويلة وعبارة: «ياالله... أى انتظار؟!» التى ظلت فى رأسها طوال الليل، كانت تختفى ببطء.

وفى خلال ساعة على الأقل سوف تميز الأصوات... صوت وصفير التهديدات والاستهزاء بالذين يواصلون مراقبتها.

فإن أسلوبهم فى الحديث والضوضاء التى يُحدثونها يدلان على معرفتهم لها معرفة تامة. ومع ذلك فهم يغلفونها بدفء غريب يكاد يكون عطفاً فى بعض الأحيان. تستنتج من ذلك أن البعض يضمر لها الضغينة والبعض الآخر يحاول الدفاع عنها. إنهم يهونون عليها ببعض العبارات العذبة المهذبة، ولكن من الجائز أن يكونوا هم نفس الأشخاص الذين سيظهرون عداوتهم وقسوتهم. وبعد ذلك يبدون قناعتهم وملاطفتهم لكى ينهكوا قواها ويصيبوها بالجنون. ها هى تحاول استراق السمع وسرعان ما تكتشف أنها ليست سوى همهمة صادرة من اختلاط عديد من الأصوات التى تحاول أن تتفهم حديثهم مع محاولات الإقناع بارتكابها خطأ جسيماً لا يمكن التسامح فيه.

كانت تشعر كثيراً باقتراب الخطر، مع أنها خارج نطاق الجدل، لكن قدرها يقف بالمرصاد. بعد ذلك أوحت لها الأصوات بأنهم يترافعون كما لو كانوا فى قضية حقيقية. لم تعد تشعر بنفس الخوف مثل ذى قبل. وهذه الظواهر تسحرها وتشعرها بالجمود وكأنها داخل شبكة لا تحاول الهروب منها. كل ما يأتى إلى مسامعها ظل بعيداً عنها... يمر فى سرعة تصيبها بدوار. لقد تفهمت العديد من الكلمات: قتل، تشويه... وفى كل مرة تعتقد بأنها الكلمة الفاصلة. ولكن تتبعها كلمات أخرى. وعندما كانت تعيش حياتها الطبيعية، لم تتوقع أبدا فى فضاء مماثل لهذا المكان... اللانهائى والرهيب، وأصبحت كالعاصفة التى تأتى وتروح وتمر بداخلها الأصوات والتداخلات وبرد الأرض.

الفصل الثالث

لم تعد تميز نفسها من الظلام إلا عن طريق نبض ضعيف، واستطاعت أن تتوازن بمعجزة، كما أصبح انتماؤها شبه كامل مع أى شئ عدا جسدها. لم يبق سوى دورة بالداخل لا تزال موجودة حتى الآن تتصل بالفضاء ولكن التمييز بينهم كان طفيفاً. كانت تتقلص وتتمثل فى درجات مختلفة ربما يكون سواداً أقل تعتيماً أو اهتزازاً خفيفاً فى قلب الظلام الدامس. وكل ما تبقى منها بالداخل - والذى كان ينتمى أيضا للظلام - كان في محاولة للاتصال بالظلام الحقيقى الموجود فى الخارج. وبثبات، تحاول أن تكون واضحة بقدر الإمكان وإلى وقت قريب لم تكن سوى هواء متنقل أو سحابة مداعبة زرقاء. لا شئ يكون منفصلاً تماماً. وكلما يبدأ ارتباطها بالليل في الانحسار، تحاول بدورها التضييق عليه وبتصرفات بطيئة أصبح الليل كالفضاء المنغلق الذى كان يحميها برغم أنه يجهل وجودها. كانت حالتها وقتية. وجودها بهذا الممر كان قسراً ولكنها ترغب فى استمراره قدر استطاعتها. لن يجبرها أحد على الخروج من هذه الحالة ولا يوجد من يستطيع أن يجد مكانها أو يعرف وضعها. فى تلك الفترة من الليل وفى تلك العزلة الجوهرية؛ لم يتبق لها سوى تفكيرها بمكونات جسدها... لم تفقد الإحساس كلية ولكنها لا تعرف من تكون: فهى خليط، لكنه يختلف عن الليل. كانت نشيطة بطبيعتها، بشكل يميل إلى الثبات وبدا أن الفكر والحركة - فى لحظة ما - وجدا نقطة التحام؛ لكنهما استمرا فى تميزهما عن الليل. إن الألم لا يستطيع أن يصل أبداً لهذا الجسد الذى كاد

أن يتجمد. فلا توجد لديها الرغبة فى تحريكه أو حتى الاهتمام به. سوف تظل ساعة على الأقل متأرجحة بين الحالتين والتى ستُفقدها الوعى بداخلها ثم تعود لا إراديا لتحس بوجود جسد ممدد فى الظلام. أرادت وتمنت أن تفقد جسدها فى الماء، وسوف تتحول مكوناته وتختلط به. سوف يعتدل هذا الجسد وعلى الليل أن يتخلى عن نسيجه الذى سيتغلغل فى جسدها ويملأه. اكتملت ظلمة الليل وعم السكون الذى كانت تتعايش معه. يمكن أن نشعر بوجودها بطريقة أو بأخرى، فهى قادرة على تمييز الألوان والروائح، وتصيبنا بالخوف وعليه فقد كنا نرغب فى التخلص منها.

لم تعد فعالة ولا تقوم إلا باستقصاء المعانى. كان هناك عديد من المتناقضات والمتوافقات. الأصوات تندمج فى هدوء. أصبح الوضوح أكثر هدوءاً، وتناست سريعاً أنه منذ بضع ساعات لم يكن هناك سوى الصراخ والتهديدات، وأنها مراقبة بطريقة جنونية. كان سطح جسدها ساكناً وهامداً والليل يميل فوقها راجياً لها الخير... دار فى تفكيرها فجأة أنه - أى الليل – مثله مثل الرجل الذى كان من قبل فى حياتها ولكنها تمردت: لا، لم يكن هناك رجل تستطيع أن تتحدث حقيقة عنه. لم تكن هذه ذكرياتها، ولكن من الذى فكر إذاً، ومن أين جاء ذلك؟

ظلت للحظات طويلة مع هذا الوضوح الحاد وغير المحتمل. بعدها، شعرت بنشوة تنبعث من جسدها الملامس لليل؛ تنبع من

المركز إلى سطح الجلد والذى ينشره مع بريق ينزلق ويتسرب فى خطوط مختلفة.

إنها تثق الآن بوجودها خارج كل الحدود، بلا إدراك لهذا الوجود.

ويدها تتابع محيط جسدها وكأنها السؤال سابقاً لكل حركة. وعندما تحرك يدها ينتابها شعور بأنها تتابع حواراً حياً. ولا تستطيع كشف مكنونه بعدما أصبح ماضياً... أبداً لن تتراجع إلى الوراء... هذا الليل المغرق فى الظلمة... تذكرت فيه ظلمتها. فاللون الأزرق هو المستقر فى ذاكرتها. لا شئ غير الزرقة: ولا تحتاج للنظر إليه لكى تراه. كانت تريد قضاء اليوم التالى دون أدنى تغير فى حالتها ودون أن يراها أحد.

الفصل الرابع

لو أن عيناً لمحتها أو استقرت عليها، أو سمعت اسمها، لتحولت ثانية إلى تلك الفتاة البائسة مثلما كانت من قبل. ولكن في تلك اللحظة لا تعرف شيئاً، ولقد شُل تفكيرها. بالها مشغول بشئ واحد: هو الوصول لليل المقبل مثل العبور السريع للجسر. إنها رغبة أساسية مثل رغبة البقاء في الحياة. كانت تبدو في نهاية الليل، منهكة القوى لدرجة أنها لا تظهر استعداداً لتغير مسارها ولن يستطيع الليل شيئاً. وعندما وصل إليها بصيص من الضوء يسمح لها بتمييز الممرات، وفي لحظة أن رأت ذراعيها وثوبها الفاتح، تمنت أن تضيع في أي مكان، وأن تجد مأوى أشد غلظة من هيئتها التي تسحقها، تغرقها وتخفيها. كانت تتجه إلى حتفها من خلال تلك الرغبة! لكنها لا تخشى شيئاً. وعلى حين غرة؛ رأت البحر كما لو كانت عند قدميه! رأت الصخور السوداء الحادة، والطحالب الملتصقة بالرمل، والقواقع المتجزئة والأحجارشبه ضامرة. أبداً لم تطف بقدميها المستقبل الذي يصحبها إلى البحر. إنه طريق ذو عرض شاسع يتفرع منه طرق متعددة حديثة الإنشاء. ويظهر على الجانبين، النخيل، وكثير من براعم الزهور التي تشق طريقها إلى النمو... استمرت مصابيح النيون في الإنارة إلى الصباح الباكر و أعطتها شعوراً بالعزلة والغربة. أبداً لن تصل إلى النهاية... فهي تستعرض المسافة التي سوف تقطعها دون أن تستطيع اتخاذ قرار! عجزت أن ترى نفسها في وضع آخر، وأن تتخيل نفسها مثلاً فوق الصخور في وضح النهار. مشاهد جامدة طغت على عقلها

وتركت علامة ظلت ترافقها لبعض الوقت مع الآثار الأخرى التى سوف تختفي فيما بعد. والظلمة تتلاشى تدريجيا من حولها، وتناقضات طفيفة تتجلى أمامها. وفى اللحظة التى تجد فيها الضوضاء والألوان المنبعثة حولها، تأتى إليها من جديد كما لو كانت من ابتكارها، فهى لا تستطيع استرجاع ذاكرتها من جديد. لقد نهضت وتقدمت بخطى سريعة دون تردد. لا شئ يستطيع مقاومتها. وفى نفس الوقت تكدس العالم وتسطح مثل النسيج. ومن المحكمة والطريقين المظللين؛ وبنايات البنك العمومى، كانت تبدو كلها كأنها رسوم باهتة. تقدمت نحو الشارع الذى يتميز بالخصوصية مثل عديد من الأماكن التى تقع على حافة البحر، وكأنه اخترق الفضاء. هناك إذاً زقاق على مرتفع عند نهاية الأرصفة السوداء، والمنازل تتضح من على بُعد فوق الأفق كلما اقتربنا من البحر. وكانت المنازل مرصوصة بدقة ولا يظهر بينها سوى السماء! لقد كان البحر بعيداً إلى أسفل وحتى نتيقن بوجودها هناك كان علينا تتبع الشارع حتى نهايته والنظر تحته. أما ما استرعى انتباهها فهو الفج الموجود بعد البنايتين ولهذا السبب قررت المجئ هنا وعليه فلن تتذكر لقاءها بأحد. ماذا ستصبح تحت الشمس؟ لقد بدا عليها الشفافية والصلابة ولا، لن يتعرف أحد عليها لأنها سوف تكون أمام الشمس مباشرة. ستظهر أمامنا... كأنها خيال يلتصق بالأفق. سيختلط الجنون بالانبهار ويختلف الأمر عما كان عليه أثناء الليل. كانت قريبة جداً من الموت فى تلك اللحظة، لكن وعلى

العكس من ذلك الآن فهى تحاول أن تبحث عن الحياة وعما تبقى حياً منها. شعرت باستحالة ذلك، كمحاولة منع شعلة من الانطفاء لأن ذلك سيكون مؤلماً. سوف تصارع ما هو أعتى وأقوى: النور والشمس. ستتصدى للنهار وستصاب نظرات الرجال والنساء مرة أخرى بالحيرة وسيصابون بالخوف عندما يحاولون تبرير ما يشاهدون مثلما حدث أثناء الليل تماماً! فإن ظلها سيترك فيهم أثراً عميقاً ولعلهم يودون أن تختفى السيدة بثوبها القذر سريعا.

سيصابون بالضيق كما لو أنها كشفت جزءاً من أجسادهم. ستصاب وجوههم بالحمرة وتُفتح أفواههم من الدهشة وهم يحاولون التماسك الحى حتى لا يرددوا أمامها: «يا الله! يجب أن نقوم بإبعادها وترحيلها!».

هذه السيدة مريضة، ويجب استدعاء الشرطة!»

لن يصرحوا بذلك ولكن ستدور بخاطرهم هذه الكلمات. إنها تراهم وهم يجرون الأطفال ويختفون خلف الصخور. سينتابهم الخوف. ولو أنها كانت رجلاً لما لفتت أنظارهم جميعاً فيما عدا الأطفال بالتأكيد، ولو اكتشف الأطفال ذلك لأصيبوا بالحزن بنفس الدرجة سواء كانت هى رجلاً أم امرأة. لا أحد فوق الشاطئ، والرمل يبدو ثقيلاً وموحلاً مع رطوبة الليل... وكلما تلفتت؛ تابعت العيون التى تشبه التجويفات الحادة ملياً وهى تتكور من بعيد مثل بعض القواقع. علماً بأن الموجات المتلاحقة

للمد والجزر هى التى أدت لتكون هذه التجويفات. إن نظراتها تتصاعد إلى أقصى مدى حتى نهاية كل خط حيث تلتقى فيه ثم تعاود الهبوط. لقد انتابها للحظة شعور بأنها فوق شئ صلب ضخم ولامع. عليها أن تنتظرحتى يتبدل النور. هى ليست خائفة، ولكنها بين حالتين...

لقد نجحت فى توقع الأحداث. وقرب انتهاء الليل وبزوغ الشمس؛ قررت بأن شيئاً لن يحدث أبداً... هى تشعر بذلك.

لقد اعتادت دائماً أن الأنباء لا تأتى سريعاً ولا تملك إلا أن تكون وحيدة بعض الوقت وبلا حديث. تمنت أن تصبح شفافة لضوء الشمس الحاد، وضعيفة مثل ورقة الشجرة المجففة، وبيضاء بما تحتويه من عروق. لقد كانت تخاف الخطر الآتى من الشمس لأنه يستطيع أن يحرقها ويقتلها. ستصاب بالألم ويتورم جلدها، وتجذبها الشمس بعنف شديد. فالليل لم يهددها مباشرة، واحتفظ بنفس الانطباع حتى تحدثت إليه. لكن الشمس تجهلها وستقوم بطحنها. لقد عبرت الطريق سريعاً عند سماعها لصوت عمال النظافة. لقد ركضت بطول الزقاق المغطى برؤوس الصنوبر التى كانت تسبب لها الانزلاق ولم يعد الليل كما كان بحقٍ. ولكن أصبح كل شئ رمادياً. الشاطئ قذر، والهواء الذى كان متواجداً كل الأيام فى تلك المدينة، قد نثر الأوراق التى تتطاير مع الرياح! لقد رأت الزجاجات الفارغة، السدادات والعلب الملوثة؛ قبل أن تمر عربات النظافة، والرجال

الذين يحملون المكانس ذات الأسنان الحديدية. وإذا ظلت مكانها فماذا ستفعل عندما يأتون جميعاً؟ ويجب ألا تتوارد إليها الافكار التي كانت تسيطر عليها من قبل؛ لأن هذا هو موضع الخطر. إنها خائفة من كل شئ... يجب عليها أن تكبح جماح نظراتها وجمودها ومن الممكن أن تترك لنظرها العنان ليسبح على الأشياء والألوان. هذا فقط ما تسمح به. فيما بعد ستتطلع للأفق. ولكن حتى هذا سيمثل صعوبة كبيرة! وعندما يزداد الضوء ، ستصاب بالجمود تماماً، رأسها إلى أسفل، وأقدامها ملتوية فى نفس الاتجاه الذى كانت عليه فى وقت ما من الليل فى محاولة منها لاحتواء الألم الذى سينفجر. فإن إحساسها بذاتها وبجسدها المتواجد فى هذا المكان، كان يتضاءل عند إحساسها بمركز الألم بالمقارنة بقوة الصدمة العنيفة التى سوف يتلقاها هذا الجسد... إنها تحاول أن تفكر وتتخيل شيئاً ينسيها وضعها. رأت نظرة مسلطة عليها، إنها لشخص لا يعرف ماهيتها؛ لكنه اكتشفت وجودها! لن تظل فوق الشاطئ... ستتصل العائلات لتصلي و تستقر تحت المظلات، وسيمرح الأطفال من حولهم. يجب أن تبتعد عن الآخرين ولا تستمع إليهم وهم يتحدثون. كان المكان الذى تمكث فيه رطباً والطقس بارداً، ولكنها لا تحاول أن تحتمى منه. إنها شديدة الحساسية للريح، وينضم إليها الآن صخب البحر، والتلاطم الصامت للأمواج والذى يتبعه انزلاق الرمال أو حتّ الصخور المتحركة بفعل الرياح، كل ذلك يبدو لها عدوانياً!... وللحظة، كان مد البحر

منخفضاً، ولكنها أيقنت أن الشاطئ سيكون أصغر كثيراً عندما تتصاعد مياه البحر. لقد انتابتها الرغبة بالركض للوصول إلى الصخور السوداء التى كانت تفلق جانبا من الشاطئ. أما الطحالب فقد جعلتها ثقيلة ومكررة وهى التى تبدو صعبة المنال. كانت كحصن بارز من بعيد... أو كأنها رأس حوت مشوش وقوى. إنه المأوى الوحيد الذى لا يتيسر لأى شخص أن يضايقها فيه. ستكون هناك كما لو كانت فوق جزيرة نائية، ضائعة فى النور. لقد أسرعت فى الوصول إلى نتوء جبل دون أن ترى شيئاً. والفجوات المتلئة بماء البحر كانت تحرقها وتؤكد لها وجود بروز صخرى. كانت الشمس لا تمثل سوى خيط أحمر أرجوانى فى الأفق. وكان لون أصفر زاهٍ يشع من وقت إلى آخر. وعند وصولها للصخور، صعدت إلى المسطح وهى تخطو كالعمياء وانتهت للوصول إلى مكان تستطيع الجلوس فيه. لقد استقلت حيزاً صغيراً جداً وظلت ثابتة فى انتظار الظهور القاطع للشمس. لقد فقدت نهائيا غلاف الليل وسريعا لم تعد سوى قطعة مثلجة وبائسة. والعبارة التى كانت تسمعها دون توقف اختفت بعد ساعات قليلة. «أى انتظار...»

إذا تصادف قدوم أحد لكانت ألقت بنفسها فى الخلاء، وصخب البحر يفجرها من الداخل فى كل لحظة؛ وكأنه يتلاطم فوقها ليدمرها. إن البحر أراد تجميدها، وإصابتها باليأس، وهل من الممكن أن تستشعر الوحدة؟ أى شئ يبقى بعد ذلك؟ وهل يا تُرى سترحل من هذا المكان؟... فى العاشرة تقريباً، سمعت

ضحكات أطفال وهم يركضون في الماء... إنه شئ لا يُصدق. فالشمس تتلألأ وتنسكب من خلال أصابعهم. لم يبق لها سوى ذكرى للون كلمة: غزال. لم يعد هناك وقت لأى فكرة تستقر وتستمر حتى النهاية؛ فهى تستشعر الضعف مع كل ارتطامة للموج ومع الرذاذ البارد بفعل الرياح والتى كانت تقطع البحر جانباً... انتظرت دون أمل واضح... مشاهد مرت سريعاً... العديد من النساء يؤدون الصلاة على حافة المياه. يوجد بالقرب من مسكنها مزار للحجيج. إنها ذكرى قديمة جداً... فى قاع المياه صادفت أشكالاً غير مميزة وتعاملت معها كأنها قبور للأطفال... وبالقرب من تلك الحفرة، توجد توابيت من القرون الوسطى. لقد خلطت الاثنين معاً دائماً. لقد قصوا عليها أن هؤلاء النساء اللائى توافدن إلى هذا المكان؛ كن عاقرات، ويقمن بأداء الصلوات بالقرب من تلك الحفرة؛ لتصبحن أمهات. كانت تعتقد منذ عهد بعيد، أن هؤلاء النساء كن يبحثن عن أطفالهن فى الماء... كنا نشاهد بصعوبة الكثبان الصغيرة فى المياه العكرة القذرة. وظلت تلك الحفرة كئيبة وحزينة فى ذاكرتها مثل ذلك الفجر، والبحر البارد. لكنها تيقنت أخيراً استحالة احتواء تلك المياه على أية توابيت... ظلت دون حراك حتى طلوع الشمس وشعرت فقط بأن الضوء الأحمر كان أقل وضوحاً وإشعاعاً... فى تلك اللحظة، شعرت بالعجز: فهى لا تقوى على تحريك رأسها أو النظر للأفق. لقد تمنت أن يولد حدث من هذا اليوم!... هنا، سيكتب الرحيل لشكل من أشكال الوجود... الأكثر أهمية لأنه

سيكون بشأن موتها! لقد تأكدت من ذلك وجاءت لتحصل عليه دون أن تدرى ماذا ينتظرها!. فإن وقت التجربة مجهول بالنسبة لها... ومثل خروجها من الممرات مباشرة، كانت تحدث نفسها بأنها ستنتظر ثلاث مرات عودة المساء. إن انتظارها الأكبر يكمن فى عودة المساء أكثر من الصباح. وذلك يستلزم تعاقب حالتين فى الغالب: الأولى وهى التى ستختلط فيها مع شكل أرحب منها وهو الذى سيحتويها، وحالة أخرى تكون فيها حياتها متوقفة على خيط، وهكذا تكون حياتها وموتها متعادلين! ليس لديها مقصد ولا تعرف ما الذى سيصيبها ويقينها الأوحد هو الإحساس بإيجاد وقت. وأن ليلة واحدة لا تكفى. إنها لا تنتظر الكثير من الصباح، إنه فقط ممر ضرورى للوصول إلى الليل. سيصبح جسدها كالإسفنج بفعل أشعة الشمس، وإذا حاول أحد اختراقه سيصيبه بالدمار. ستصاب بالألم وهى تتقى المواد المذيبة مثل الرمال، الملح، والبحر... سيتسع الضوء الأصفر أمامها ويرتفع إلى عنان السماء مصحوباً بشئ من العذوبة والحذر أيضاً... وهذه الشمس القادمة هى الليل مع بطئه وضعفه وتردده. هل توجد نساء كثيرات مثلها، ينتظرن الضوء ويتأملنه؟ فهى تتأمل بحزن تلك الشمس التى ستغرب وتشع بالسواد... وكانت تستشعر نظرات جسدها بالطريقة التى تصورتها فهى فى حاجة لتلك النظرة التى ستصاحبها طوال الوقت وعندما تتخلص من شعورها بالخوف تجاهه ستعود مرة أخرى لحياتها القديمة. النهار وحرارة الشمس هما الشيئان

الوحيدان اللذان استحوذا على اهتمامها. فشمس الليل تختفى وراء شمس الصباح وسيكون ذلك قاسياً وربما قاتلاً.

ومثل ظهوره القاطع مباشرة هناك لحظة توقف قلقة بداخلها البرودة والزرقة. سيرتفع منسوب البحر، وسيصبح خطرا، فالصخور حادة، مظلمة ولزجة، والفضاء كما تراه بعيد مثل الأفق الخالي يستحيل اجتيازه، كما تخيلته فى الطرف الآخر من العالم الملئ بالأصوات الأحادية. لقد كان هنا بجوارها ولقد أصابها بضيق فى قلبها... ولقد أضفت الشمس لونها الأصفر على البحر، مما جعل سطحه يبدو ملوناً ومغطى بغشاء رقيق. فى تلك اللحظة أفقدها البحر الكثير، ولكنها لا تتمنى سوى الاحتفاظ بقليل من الشعور والأنفاس. تستطيع الأن النظر للأشياء بحرية، بعدما هجرها التوتر،... ولم يعد لديها الرغبة للتحمل أو الاحتماء. كل ما كان يلزمها هو الفناء الكامل، والانسلاخ كلية حتى لا يتبقى لها شئ. فلا ملجأ، ولا عبارات محددة ولا إشارات ولا ذكريات تتركها لأحد. ستصبح قبيحة دون حديث ولا صوت لن يتبقى لها شئ تتخيل به مستقبلها أو غيره. وستصبح أنفاسها الدليل القاطع بأنها لا تزال على قيد الحياة. فى أوقات كثيرة وخاصة فترة الصباح تعاودها رغماً عنها مشاهد الفيلم الذى شاهدته وهى فى الخامسة عشرة من عمرها... وجه لامرأة إيطالية سمراء وهى تستعد لهبوط السلم الخشبى ولكنها تتعثر، ويسقط من يدها المصباح؛ فتشتعل الأرضية... وتزامن مع الحدث وجود شاب فى الطابق الأسفل

شاهد الواقعة دون محاولة منه فى التدخل مما أدى إلى اشتعال المنزل سريعاً. وهكذا يحضر الرجل موت السيدة التى أحبها... لقد ظلت لفترة طويلة تتأمل البحر بلا ملل ويحتبس بداخلها شعور شاق وغير محتمل هو رغبتها فى الذوبان داخله ولكن انتابها شعور مفاجئ بالخوف. فالبحر لا يستطيع أن يتحملها أو يتقبلها مثل الليل ولكنها ظلت تستمع للفراغ والضوضاء. وتبحث عن أدق تميزاته، وقررت فى النهاية أن تتأمل السماء، وتتنازل لها عن نفسها لأنها لا تريد أن تُسحق أو تنهك. لا أحد هنا يدرى بأنها تنتظر شروق الشمس والدفء البطئ للصخور، لأن نيتها المبيتة لا تزال قائمة ولكنها فى الوقت نفسه مكبوتة وكامنة... وهذا الانتظار يكفيها. ومصداقية ما ترنو إليه وتستشعره يحوى هذا الجسد الضعيف المُهمل والذى لم يشد انتباه أحد... والعديد من الأشباح يروحون ويغدون فوق الرمال... شخصان يسوقان قارباً... وجرارات ضخمة تشكل نتوءاً. ومع عملية الجزر، كشف البحر عن الطحالب السوداء التى أخذت شكل مقدمة رمح... وعند حضورها إلى الشاطئ فى الماضى، كانت لا تفضل السير فوق النباتات الآتية بفعل المد والجزر والمغطاة دائما بسحب من الحشرات الصغيرة. لقد أصبح كل شئ مسطحاً ومن ناحية الشاطئ، كان البحر هادئاً وينعكس عليه اللون الرمادى فى الأجزاء التى يرتفع فيها ويتحول إلى اللون الأخضر عندما تُكون هُدباً لسائل أكثر غلاظة. كانت أمواجه تتصادم بهدوء ثم ترتد ببطء أكثر. وبعد لحظة ألقى

الماء تموجات طويلة فوق الصخور بطريقة غير متوقعة ومفاجئة. والآن استنفد الظل والنور دورهما، وكونا عالماً آخر أبعد مما كانت تستطيع أن تراه. كان عالماً ضائعاً، لا يُحتمل. خلف الشعاع، وخلف الأشكال الرمادية والنُحاسية الحمراء والتى يتخللها خطوط صفراء، كانت تتوقع رؤية مراهقين أو كائنات شاحبة مُكتسية بالبياض؛ يتقدمون ببطء وبصمت مُحدقين بأعينهم. وإن إحساسها بهذا العالم الآخر الذى لا تعرفه يُصيبها بالحزن. وللحظة، شعرت بأنها عادت لحالتها الأولى. ولديها الرغبة فى الموت، ولكنه موت يُصيبها بخوف، وميتة تتمناها عندما تصبح حياتها لا تساوى شيئاً، وحينها تشعر بالوحدة أو تتأكد أنها لن تصبح الإنسانة التى تحلم بها. تلك الميتة هى العقبة!! وإذا أنهت حياتها الآن سيدل ذلك على أنها حية على الدوام وستظل هكذا أيضاً فى الموت وستعطى مبررات بعدم قيامها بأداء واجبها الذى لن يتم أبداً ولكن هذا الموت سوف يُخبئها بالرغم من الشمس التى تعطينا الإيحاء بإخفاء عالم آخر... ونجحت للنظر إلى السماء منذ لحظات قليلة وكأن السماء قد أصابها شئ من التردد فهى لا تقود الآن إلى عالم آخر حزين، بارد المشاعر ولكنها تفرض عليه لوحة: سُحب كثيفة براقة ورقيقة تُكون شكل هيكل صخرى تندفع عليه شلالات عظيمة وشاسعة... هناك نشاط يكاد يكون محسوساً بين السحب ويُعطى الانطباع بأن هناك مياهاً تتدفق بلون وبريق الصدف. وفى نهاية هذا المسقط تأخذ السحب المكدسة شكل

الرغـوات، ونظرت طويلا لهـذا الموج المرتفع القـوى وهو ينهـمـر ببطء غريب يقطعه التوقف فى بعض الأوقات. أمـا المشـهد فإنه يشبـه اللوحـات الدينية مع انسكاب الضـوء شـيئـاً فشـيئـاً! لقد أصبـحت السمـاء بالتدريج شيئاً محسوسـاً يفرض وجوده كأنما تتحرك وتُستثار وكأن الأرض والبـحر قد طُمسا واتحدا معاً... ما الذى سيأتى من السماء، وهل يبقى لها مستقبل تمنحه لها؟ من بين كل هذه الأحلام والتطلعات التى كانت تريد تحقيقها، هل سـيـبـقـى لهـا حلم أو هـدف تسـتطيع أن تسـتكمله ويحـرك مشاعرها؟ ولكنها تجد دائما صوراً للماضى الذى له علاقة وثيقة بواقعها الحاضر، لذلك هى مطمئنة بأنها لم تصب بالجنون. منذ أعوام قليلة، كانت تمر كثيراً بالطريق الذى يَحُد الشاطئ. وحين يشتد البرد فى الشتـاء أو عندما تهب الرياح بأشباح متناثرة على الصخور تكون جالسة فى ثبات دائم مثل الأصنام الحجرية ولا يزال فى ذاكرتها نساء أكثر من الرجال وهم يؤدون الصلاة متطلعين للبحر. لقد امتصوا كل شئ وتخلصوا من معاناتهم. وحـتى رحـيل أندريه لم تتـخـيل أبداً الوحـدة وتصـورت بأننا نستطيع أن نختار بين الوحدة وعدمها وبنفس الطريقة، كانت تعتقد منذ لحظات قليلة أن الموت أصبح شـيئـاً بيناً... وفكرة الاستمرار فى الحياة تظهر، فى كثير من الأحيان، كأنها جُرم مؤجل! عندما بلغت اثنى عشر عاماً وأرادت الذهاب للمدرسة، كان عليها المرور أمام ڤيلا مهجورة كل يوم. ولم تنس أبداً أن ترفع رأسها تجاه الشرفة. وفى كل مرة كانت تشعر بالطمأنينة

كلما مرت ووجدته هناك! وكان يتردد كثيراً بين الناس... بأنه سيترك نفسه للموت لأن المرأة التى أحبها تركته. وكل يوم كان جسده يفقد الحياة، يوهن ويضعف. ومن الواجب أن نأتى له بالطعام بالرغم من أنه يملك ما يكفيه ولكنه منغلق على نفسه فى بيته كأنه فى الحبس، لا نستطيع أن نحدد بوضوح وجهه من بعيد ولكننا نرى أن عينيه زرقاوان ونظرته مفترسة. هل كان ينتظر الآن مثلها حدوث شئ له، وأنهم سيأتون للبحث عنه... خطيبته مثلاً... وأثناء النهار، كانت هناك لحظات هدوء، تحاول أن تبحث فيها عن الحياة، متناسية وضعها... تفكر بحرية تامة، متخوفة من أن يفقدها أحلامها الوقت، وتتركها إلى الأبد فى هذا المكان. يجب إبطال قوة تلك النظرة الخارجية التى أصابتها بالوهن وبقلة الأهمية إذ أصبح العالم ظاهراً لا يتعرض للسلب، ويتفحصها بدقة قبل الوصول إليها، سيصبح جديداً فهى تراه وهو يصعد ببطء كالغريق ولكى يصل إليها ذلك الحدث يجب أن تتجرد من كل شئ. فى بعض الأحيان كانت لا تفكر فى شئ على الإطلاق ولا تزال فوق الصخور والشمس ساطعة وتحاول إزالة بلورات الملح من جلدها... وفى لحظة ما سيطر عليها انطباعها تجاه الليل عندما شعرت بوجود صورة داخل صورة. لقد أصبح وجودها وقتيا تحت لفح الشمس لدرجة أنها شعرت بالتلاشى... وأثناء ضلالتها المؤسفة؛ تحولت إلى مادة سماوية بل أصبحت أثيرية – بعد ذلك – سمعت صوتاً مرتفعاً، إنه صوت عصفور بلاشك. لقد أصابها بالخوف وأعادها للواقع

واستعادت وعيها كاملاً. لم يتبق لها سوى السماء الزرقاء وكون شاحب اللون كأنه حطام. وتحت الضوء شديد البياض عادت مرة أخرى للانتظار ولم تجد ضرورة للوجود فى نفس المكان. لقد فقدت كل قواها... واللانهاية للبحر أعطتها الشعور بالتراجع بعيداً تحت الضوء الساطع. كان المدى دوما أبعد مما تنظر، وأبعد مما تبحث، ومع تطلعها للسماء كانت تعيد رسم العديد من المشاهد الطبيعية والممرات الطويلة التى طالما تخيلتها... تلك اللوحات ظلت باقية هنا فى الحفظ والصون بالرغم من كل ما نتج عن حياتها خلال الساعات الأخيرة... لقد وجدت فى تلك اللوحات مناسبة، ومهلة للتوقف فى النهاية التى كانت تتمناها. وأقصت من أحلامها كل الأشخاص التى عرفتهم من قبل ولامت نفسها لأنها لم تستطع أن تكشف ما بداخلها... فهى تستشعر بالهزيمة المؤسفة، والإهانة البائسة التى تصحبها فى كل مرة. يجب أن تتسم أكثر بالصلابة، ولا تتراجع، وتستكمل المواقف الناقصة، الطائشة التى تثبت عدم خوفها من الموت. وعندما تشعر بأن الموت أصبح "مألوفاً عندها، ستذوب النظرات، إنها على يقين من ذلك، لأن الموت والنظرة سيختفيان معاً مثل المياه التى تتشربها الأرض. كانت النظرة متصلة بالموت الذى سيجرفها إلى نهايتها لأنها أكثر صلابة. واستشعار تلك النظرة كان مُسلطاً عليها دون توقف كأنه دليل خوفها. لماذا لم تستطع التخلص من هذا الشعور؟ وإنها لم تعرف أبداً كيف البقاء؟ هل تبقى بدونه؟ إنها تبدو بسببه مثل التعساء المجانين...

الفصل الخامس

لقد تمددت فوق الصخور حيث لا ترى إلا بصعوبة وهى مستلقية... أغلقت عينيها وأصبحت جفونها دقيقة وشفافة. الشعيرات تجرى تحت جفونها كالحيوانات المذعورة. تتقارب وتتفرق بمهارة. لا تستطيع مقاومة النور القاتل الذى يخترق جفونها المغلقة. وبعد وقت طويل عندما أصبح البياض لا يحتمل، حاولت أن تتحول عنه تاركة نفسها لغزو الحزن لكن بلا فكر محدد. حاولت أن تحمل على عاتقها دفعة واحدة؛ كل إحباطات حياتها. وعرف جسدها حالات متعاقبة أفضت إلى الغربة بينهم وفى اعتقادها تصور بأنهم سيبدلون كينونتها ولن تجد نفسها. وذلك لن يتم إلا عن طريق التخلى التام عن جسدها... أرادت أن تعرف أحاسيسها، وتكتشف جميع النقاط التى عن طريقها سيلمس جسدها الصخور، وتعيش الآلام التى ستصيبه. لا تريد أن تتحاشى شيئا. ستتجفف تحت الشمس مثل المحبين اليائسين تحت سقفها! لقد أصبح جسدها طفلاً سعيداً بالتنفس وبالحياة، لقد تمنت أن يأتى الموت ويتمدد بجانبها، مثل الرفيق الودود.

ما كان يحدث ذلك لو أنها سُلبت من كل شئ. وحينئذ ستختفى النظرة لكى تتصل بهذه الهيئة القريبة منها، والأكثر رقة. لقد صور لها فكرها بأن الموت شئ ملموس أكثر من تلك الحالة القاسية تحت الشمس وإن الدخول فى الموت مثلما نبدل

ملابسنا... ولن تشعر أبداً بالبؤس ولا بالجبن. وفجأة! ستتبدل أفكارها وتصبح أكثر واقعية. هل هناك شئ يجب عليها القيام به ولكنها تجاهلته؟ وهل استطاعت أن تحمى نفسها منذ أن تركت شارعها؟ ودخلت بعد ذلك فى حالة نصف الوعى. لقد وصل إليها رذاذ الأمواج عند ارتطامه وأجبرها على تحريك رأسها. فهى لا تعرف أين تكون، ولا تستطيع أن تتهرب من حالتها فى الغالب ويجب عليها الاستمرار إلى أن يصل بها الحال للتحول لشكل طُحلبى أو حيوانى، نباتى أو معدنى أو قطعة من الخشب الميت الذى يتجمع حوله العصافير. كانت تشعر بأقدامهم السريعة فوق جلدها وكأنها تخدشه. وبعد فترة، انتابها شعور قلق: كأن شخصاً ما يتنفس بجانبها. هذا الاستئناس الحميم ما لبث أن اختفى بسرعة! لمحت مرة أخرى خيالاً بجانبها؛ فأحست بالسعادة والمرح. وكأن هذا الشخص يلهو معها. يا ترى هل هى سيدة؟ فهى لا تستطيع تأكيد ذلك. ولكنها هيئة بيضاء. هذا القرب سيوضح لها كل مظاهر الحياة من حولها: العصافير البيضاء أثناء تحليقها، أصوات النداءات فوق الشاطئ، سقوط الأمواج، انزلاق قارب من بعيد... وحتى الضوء كانت تتبعه، وحولت كل هذا إلى رسائل ملموسة. وعندما يصل إليها صوت أو رائحة، ينتابها الشعور بالحصار. وتفرض عليها فكرة: «حقاً، أنا هنا» وتتذكر نفسها كأنها لم تجدها منذ أن رحلت عن مسكنها. وتعرفت على حالتها البائسة، الضائعة فوق الصخور... لكن لا... لم تكن بائسة ولا وحيدة إنها نصف

شفافة وذات ألوان ضعيفة. والظلال الكثيفة تخترقها من وقت لآخر وتصيبها بالفزع الشديد. هذا الشعور يتغلب عليها عند مرور طائر أو بفعل مرور تيار هوائي. الشُعيرات الملونة تحت جفونها لا تهدأ. وعندما يتحركون ينبعث منهم من حين لآخر لون أحمر دموى. حتى هى فى لحظة ما كانت تتحول إلى مجموعة من الشظايا التى تسقط سريعاً فوق الصخور، لكن دون كارثة أو إصابة وجسدها يشعر بشدة الارتطامة التى تلقتها بغتة، كم كانت قوية ومفاجئة! مما أعطاها الشعور بمعجزة أنها لا تزال على قيد الحياة بعدها. وعندما كانت تغلق عينيها وتفتحهما؛ تجد مجموعات من الأشكال السوداء والصفراء تتحرك بسرعة صاخبة. ومن جهة أخرى لم تغفل اقتناعها بأنها لا تزال كما هى وهذا ما لا تتحمله. إنها تستطيع أن تحيا فى تلك الحالة السيئة التى هى عليها الآن، سيكون ذلك رديئاً ومعتماً ولكنه يختلف عن الموت. هذا ما شعرت به فى تلك اللحظة فوق صخرتها الجرداء المظلمة والخالية من الرياح ومن نداءات العصافير... إنها لا تزال داخل الحياة المركبة والملونة التى تود أن تتقبلها وهى بذات الهيئة الضعيفة تنظر للأشياء بلا مبالاة وتحتمى من الشمس الحارقة وتقوم ببعض الإيماءات التى تظهرها كأنها مزعزعة وآيلة للسقوط فى الفراغ... فهى بعيدة عن الخطر طالما أنها لم تغير موقعها، حتى النسبة بين الظل والنور تصيبها بالضيق لو شعرت بالتغير داخلها. لو حاولت النهوض لوقعت فى حفرة ولن تقوى مرة أخرى على القيام. فى وسط النهار يكون الشاطئ أكثر

هدوءاً والسماء أثقل وأكثف من البحر؛ لذلك تحاول أن تتصل به ولا تترك سوى مسافة ضيقة جداً للأشخاص و لها. حاولت أن ترسم العديد من المشاهد الطبيعية المختلفة لكل ما يدور حولها ولكن أين ستجد البحر فى تنقلها. لقد سمعت أصواتاً عديدة بجانبها. هناك ثلاثة رجال لم ينتبهوا لوجودها. يتحدثون بهدوء لغة أجنبية غريبة. لقد جاءوا لتناول بعض السندوتشات فى الوقت المحدد لوجبتهم لكنهم لم يروها. كانت تتوقع نظرة مفاجئة لكنها سقطت من جديد فى دوامة اليأس... النظرة جاءت لتتراكم على النظرة الأخرى المتفحصة، حتى لو أرادوا بها مواساتها، أو رثاءها، أو ليخرجوها مما هى فيه ويشعروها ببؤسها... ولكنها أرادت نسيان كل الأشخاص الذين عرفوها، وستقوم بفعل ما يستوجب ذلك، و ما لبثت أن تمردت على الفكرة التى تتطلب منها مشقة. وفضلت أن تلزم الصمت، ولا ينتج عنها أى إشارة عندما يكتشفون مكانها... ولو أرادوا أن يقدموا لها يد المساعدة فسيصبحوا مسئولين عن جثتها المزيفة لأنها لن تحاول أن تساعدهم وعليهم أن يتدبروا أمرهم معها. ستكون وجوههم الملطخة بجانب وجهها، وسيتعاملون معها عن قرب. وعليهم أن يتحملوا ذلك بدافع أنه واجب إنسانى؛ فهى ترفض أن تصبح شيئا كريهاً. وتساءلت: هل كل الأشخاص الذين عرفتهم من قبل يعرفون هذا؟ ما الذى كانوا يمثلونه لها وهل أحبتهم، وهل مازالت تحبهم؟ وعندما تكون واضحة مع نفسها؛ تدرك انفعالاتها المحتدة، وخوفها من هذا الانشطار الذى يصاحبه

حالة من الجنون العارض. لقد انبعثت من داخلها أشياء غريبة: أشخاص يتحدثون، يتمتمون بكلمات سريعة. كل شخص منهم له صوت مميز بنبرته لكنها حينما تحاول أن تميز واحداً منهم تتداخل باقي الأصوات غير المفهومة كصراخ شخص مجنون. تلك الأصوات التى تتردد بقوة لم تكن سوى صراخ أطفال، أو اجتماع لجميع الأصوات الواردة إليها. لن يستطيع أحد أن يشتبه فى حالتها هذه، مع كلّ هذا الهدوء الذى تظهره لكن كان لديها الإحساس بأن شخصاً ما سيأتى لكى يوقظها من غفلتها. كانت القوارب تأتى إلى الشاطئ، بينما رُصت المناشف فوق الرمال على شكل مربعات من مختلفِ الألوان... الأطفال يمرحون وهم يطلقون صيحات قوية... العصافير الآتية من الأماكن النائية تطلق الصيحات بدورها وتصيبها بالتمزق... تلك العصافير تأتى من الجزيرة المضيئة نحوها لتخبرها بالأنباء الجديدة لهذا العالم وما وراءه. إنها عصافير مختلة عقلياً. وأصواتها غير محتملة... وفى لحظة ما، اقترب من الصخور شخصان، رأتهما يجلسان جنباً إلى جنب ويبدو عليهما أنهما متحابان. من وقت لآخر كان قارب يتتبع خُطاها بسلام، لكنها انخرطت فى البكاء. هذا القارب يمثل بالنسبة لها الحب والمجهول ويحمل معه كل المعانى... وصراخ العصافير كان بمثابة عقاب،... فهى تصرخ لجذب الانتباه حيث كانت على يقين بأنه سيجن جنونها وتموت فى هذا المكان... الشك ينتابها دائما: هل جاءت إلى هنا لتموت؟ وهل ستلقى بنفسها فى الماء بعد ساعة؟

كانت لديها الرغبة الملحة في مجئ رجل في أي لحظة من النهار، فهي تفكر في الحب كأنها لم تعرفه من قبل. فجلستها هذه ليست إلا مهلة... لأنها لا تتوافق مع قرارها بالانفصال عن محيطها وتفقد القدرة على الانسلاخ عن نفسها عندما تتعدد بداخلها الشخصيات ويتولد الانفجار والتشتت؛ ليقودها لفعل أي شئ. وأثناء جلوسها، كان يجول بخاطرها كل ما أخفقت فيه، ثم سقطت في الخوف من الأخطار القادمة من المحيط الخارجي. لقد أخذ العالم والفضاء التدابير اللازمة... إنها تخاف من برد الليل القادم بعد ساعات قليلة. أثناء جلوسها؛ شعرت بإمكان تعرضها للعطب ولكنها على دراية بعدم وصولها لنقطة الجنون واكتشفت من جديد دورتها الدموية، ذكرياتها، أذرعها. والأفق عاد من جديد ليكون هذا الخيط الرقيق والناعم الذي يهدئ من روعها. لقد رأت بحيرة تتخللها الأشجار والخُضرة كالغابة من خلال الألوان العديدة سريعة التغير للسماء، وعرفت للحظات السعادة وهي تنظر للبراري على حافة النهر. هناك طريق مؤد إلى جماعة من النساء والرجال السعداء... البحر يفرض نفسه من جديد، أما هي فتفكر في الهاوية: سيكون البرد شديداً على عمق مئات من الأمتار. من أين جاء هذا الخضار العجيب الشبيه بالزجاج؟ عندما كانت صغيرة، كانت دائمة التساؤل عن الشخص الذي يقوم بصبغ الزجاجات؟ ومنذ أن أخفقت في تعلم السباحة أصبح البحر يمثل لها مصدراً للخوف! وكانت تعرف ماذا يعني أن تُفقد في هذا الخضار الذي لا تستطيع التعلق فيه

بشئ لنعومة ملمسه. ومن على تلك الصخرة لا تفعل شيئاً سوى الانصهار مع الليل؛ لمعرفة قدرتها على الاهتمام وخوفها من التدمير الذى سيحدث داخلها: سيحتقرها الجسد، ويفقد انعكاساته ومخزونه من الأحاسيس... كانت الأمواج تلهب أقدامها أثناء استلقائها ماعدا وجهها الذى أصابه الاحتراق، وأثناء الجلوس كان الجسد يروى غُلّته كاملاً. إن هذا المكان يتسم بالغليان: الصخور، الطحالب الغليظة، البحر والشمس... كل هذا أصابها بالرعب... لأن التصرفات البسيطة وكل انطباع كان يأخذ سريعاً صفة الأهمية: الجلوس، النظر للسماء، ووضع اليد فوق صخرة. كل ما كان يحدث لها ضرورى ومحتوم. فهى لا ترى الوقت الذى يمر، كله متشابه ومختلط داخلها. الصور، الذكريات وأجزاء المكان التى كانت تتعايش معها بعضها ببعض. وبعد مُضى لحظة قصيرة، وفى وسط النهار تيقنت بأن صخرتها كانت محطة للحراسة، وللمراقبة: فهى مُكلفة بحماية الشاطئ، وتدوين السابحين المتهورين والغرقى، لكنها نسيت سريعاً مهمتها... وهذا النتوء فُصل كلياً عن الأرض مرة أخرى... بعد ذلك شعرت بالفزع لأن كل ما يحيط بها أعيد تشكيله بطريقة أخرى. لقد انتابها شعور بتضخم جسدها. وللهرب من تلك الحالة؛ كانت تريد أن تتمدد لكن بشرط إقصاء الأحاسيس والضغوط وبعض الذكريات أيضاً التى تنصب عليها لكنها تفشل فى ذلك لقوة تأثيرها عليها. كانت الذكريات تطغى عليها... تضغطها وتخنقها... الصور تغزوها؛ لكنها ليست بذكريات

حقيقية ولا هى بأحلام، إنها صورة، ضوء فلاش آخر، وتتوالى سريعاً وكلمات تأتى فى نفس الوقت: حب... فهى ترى العديد من النساء والرجال على الشاطئ، لكن سُرعان ما تختفى تلك الأجساد لترى متاريس وحائطاً يلتصق عليه الشحاذون. الحجارة تأخذ اللون الأحمر، والمتاريس تبدو مرتفعة عند غروب الشمس والملابس مهملة على الأرض، مدهوسة وقذرة، وبعض الأشخاص يرقدون فوق المقاعد فى الظلام. عند مرورها من أمامهم، كان البعض منهم يعتدل فى مقعده لكى يراها وهم يضعون أيديهم على مقدمة الرأس أعلى حاجب العين. فهى مثلهم، ماذا سيحدث لهذا الجمع المنتظر؟ لا أحد يعرف؟ ولأول مرة أصبحت مثلهم؛ فهم جميعاً منتظرون. لقد حاولت الاحتفاظ بتلك المشاهد حاضرة... والتى كانت بالتأكيد تريد أن توضح شيئاً وتحتفظ بالحل الذى تبحث عنه. وكلما أعادت التفكير فى تلك المشاهد، ينتابها ضيق. فكيف تستطيع أن تفسر لعبة الإضاءة: السور الذى تراه كان يأخذ لون الأحمر للرمان. كانت الظلال كثيفة؛ ولكنها مضاءة بنور القمر فى المساء. هناك العديد من الألوان الداكنة، كالبنى والأصفر لكنها مطحونة تحت أشعة الشمس البيضاء. هؤلاء الأشخاص متشابهون معها، وألفت نظراتهم وظلت ثابتة أمام وجوههم وحلت كل رباط بينها وبينهم. فهى تريد الانشطار: سيكون ذلك كالفجوة التى تنغلق عليها، وستصبح غامضة ووحيدة بين جدران جسدها. وعندما تتلف صورة، كانت تمر إلى غيرها وظنت أن تواجد صورة قوية

سيفقدها كاملة... إنها دائمة التفكير فى المسافة التى تفصلها عن المياه على عمق خمسين مترا. وفى خلال ساعة أو نصف الساعة ستكون في عداد الموتى. هل جاءت إلى هنا لتناله أم لتجاوره فقط؟... إذاً لماذا هذا الدفاع؟ أى كآبة، وأى غموض لكونها هنا على هذا المرتفع المتأجج بالغليان. هذا هو الانهيار الداخلى المتعارف عليه... متى ستشعر بالاكتفاء وبأن التجربة انتهت؟ هل هناك شئ جديد؟ لو أن شخصاً اقترب منها لأجهشت بالبكاء وتوسلت إليه. ستساق مثلما كانت من قبل فهى ترغب بشدة وبيأس أن تتوارد الصور إليها فهى تكمن فى جسدها، هذا العالم الذى ينتمى إلى مادتها. وفى تلك اللحظة شعرت بكثافة العالم من حولها. كان يوجد بجانبها أشخاص واقفون. إنها على ثقة من ذلك، واستشعرت ظلهم لكن ضوضاء الشاطئ تبدو لها مختلفة. يتحدثون بصوت منخفض وضجرين من وجودها فى المكان: فهى امرأة ممددة، مغلقة العينين، ترتدى ثوباً أبيض ملوثاً وتتهدل أوصال شعرها على كتفيها. فهى لم تختر حتى هذا المكان الجاف. ولم يرصد انتباههم سوى ثوبها المبلل داخل بركة مياه صغيرة ويدها القابضة على بعض زبد البحر قد انتزعته. لقد أخفقت فى تعديل وضعها سريعاً، لكنها قررت أن تتظاهر بالموت لكى لا يقتربوا منها ولا يمسوها وإنما لينسوها. لقد انتهى بهم الأمر إلى التراجع. مع ذلك ظلت مكانها مع ملاحظتها بوجود ظلال سوداء ملقاة عليها. لكن الواقع مخالف لذلك؛ لأنهم لم يكونوا بجانبها. وتلك الشرارة جعلت

عقلها أيضا فى اضطراب، بينما حالتها الداخلية كانت أفضل ولا تملك الحرية فى التفكير. وتظل لفترات طويلة جامدة حتى تنساهم... دائما ممددة، وكأنها أصبحت الشق الذى يحوى هذا النتوء الذى ظلت طويلاً معلقة فوقه منذ الصباح. وأخذت الأمواج فى حمل جسدها الساكن الذى أصبح يطفو. فهو لا يرغب فى شئ، إنه لا ينتمى إلا للأرض، الرمل أو حتى للحجر وهو لا يسترعيه شئ يحدث له ولا أحد سيتذكره. لا شئ يؤثر فيه... لا الوقت ولا التدميرات الخارجية والإتلافات الطبيعية... وقريباً سيتولد جسد بلا معالم ولا تاريخ. والنظرة التى كانت تتبعها بدرجة من القسوة والإهانة ستلحق بها أخيراً.

هل الحب كان بعيداً عنها بنفس مسافة تلك النظرة؟ فى كل مرة كان يتمثل أمامها الرجال الذين أحبتهم محل تلك النظرة وهى سعيدة بذلك، لكن المعجزة لم تدم طويلاً وحاولت أن تتمالك نفسها وأن تكون أكثر وضوحاً، وتُدير فكرها ولكى تتوصل لذلك كان عليها أن تُقصى الصور، القصاصات الملونة؛ المشاهد واللوحات التى كانت تتداخل وتحوم. فهى تتجدد سريعاً لدرجة تفقدها الإحساس بجسدها وتُنسيها اسمها والمكان الذى أتت منه. فى البداية كانت تظن أنها وجدت الإجابة عما تبحث عنه! فهى مندهشة من ذلك وفيما بعد خافت على نفسها من الجنون. لم يكن عليها إلا أن تضع يدها فوق صدرها أو على ذراعها لينتظم كل شئ. كانت تتسمع للترددات والاهتزازات التى تصدر عن جلدها، وعن تنفسها وللنشاط الداخلى أيضاً لجسدها وتُكون

جميعها شبكة حية. فهى تبكى حيناً وتطغى عليها عاطفة جامحة وقد تركنا جسدها هنا مهجوراً. لا يُحزنها أن تكون هنا نسياً منسياً، لكنها فقط متأثرة ومصدومة والتحمت دموعها داخلها؛ لكى تعيد لها نظرتها... لم تعد تبكى كما كانت تفعل من قبل لإحساسها أنها لم تستطع تحقيق حلمها، وسريعاً تذكرت: يوجد دموع لدى. إن القوة الغاضبة الساخطة المحيطة بها لم تعد تشعر بها نهائياً لأنها اختفت ولا تُعير لها أى اهتمام. وكل مظاهر جسدها الأكثر دقة مثل ارتفاع صدرها أثناء التنفس وعند تحرك خصلة من شعرها بفعل الهواء وتُغطى وجهها كانت تمثل لها سعادة كبيرة كالطفل. فهى منتبهة جيداً لكل الأحاسيس التى تتوالى دون إحداث تداخل مع غيرها لكنها لا تدوم طويلاً لذلك تبحث عن أحاسيس لا تُشعرها بالوحدة وكل مكونات وجودها ستأتى نحوها ببطء: الصور، النظرات، وحتى دورة الهواء. وبتجمعها تتكون مادة لن تتعرف عليها سريعاً. ولا تستشعر جسدها بالقدر الكافى ويجب إضافة المزيد من الأشياء لكى تحيا وتستطيع إثبات حجمها ويصل إليها هذا الإحساس عند النظر للبحر وتتركه يقتحمها كما يقتحمها الظلام. فهى تخاف أن تدنو منه كثيراً، وتهديه نفسها فى اللحظة التى تجهل فيها السبيل للهرب منه. لقد بدا لها البحر كالحيوان بسذاجته وخطورته وشعرت بنباتات الرمال والنتوءات والبروزات التى كانت تتلاشى عندما تتحول إلى بحر وتخيلت اشتعالاً أكثر ضراوة. وهذا التضارب بين المياه الكامنة الباردة وبين جسدها الحى فى

اللحظة التى سينتهى فيها. إنها تشعر تماما بالمادة التى سينتج عنها بريق الفضاء وذلك لن يستغرق سوى ثوان معدودة دون مستقبل. إنه طريق مسدود. منذ أن تخيلت المشاهد بالقرب من الأسوار، فهى لا تستطيع أن تسعد بجسدها كما هو... وكل ما كان حولها لا يكفيه. كانت بحاجة لتلك اللوحات بألوانها المتعددة المظلمة بقدر ما ينقصها فى تلك اللحظة من الظل تحت الشمس. لا توجد وسيلة للتراجع، هل كل هذا البياض كان محتوماً بالضرورة؟ كان جسدها غارقاً فى ذلك البياض... واستمر يمثل عائقاً، واللحم الذى يغلفه كان رقيقاً... ستنصهر سريعاً وتختلط عظامها بهذا الضوء الميت. يجب أن تجد مرة أخرى الظل. فهى تبحث عن اللون الأصفر والبنى المائل للاحمرار الذى سيعيد إليها الحياة... بل تبحث عن الأسود أيضاً. كانت لديها رغبة شديدة فى رؤية العديد من المارة مبتسمين. وصَاحَبها إحساس دائم بأن الفضاء والشوارع تبتلع العالمين... كانت تراهم دائما من بعيد لا يتبادلون الحديث بينهم وعندما يتحدثون لا يأخذ ذلك طابع الحياة. لكن ما يؤخذ فى الاعتبار أن ما تبقى لديها، هى الطريقة التى يظهر عليها الناس. فهم يسيرون ظهورهم لها وترى من علٍ مناظر بعيدة. تتطلع لرؤيتها من قريب لترى ابتسامتهم الحقيقية الودية بشكل واضح فهى تريد أن تكون المحرك لجميع المشاهد، حتى تجهد نفسها لاسترجاع اللوحات التى تحوى المتاريس؛ لكنها لا تنجح إلا فى إحياء الأشخاص القادمين فى الشوارع؛ لمدينة قديمة وخاصة لرجل وامرأة

يتقدمانها يرتديان نفس الملابس ويبدو عليهما التهرب منها
ولكنها تريد أن تستوقفهما ومصاحبتهما! أدوات تلك المشاهد
تتكدس أمامها لتُكون فى النهاية سُحباً من الغيوم والألوان. تلك
الأدوات كانت تتقلص أحياناً بفعل عامل الاحتكاك والضغط. كل
ذلك يتلاشى وراء الأسوار التى تنغلق سريعاً؛ خلف الأبواب التى
بداخلها ظلال الأشخاص والأدوات التى تستمر فى التواجد.
مبدئياً،... تحاول التسلل داخلهم... وإذا حققت ذلك، يكون
إنجازاً هائلاً لتخطو داخل مدينتهم! ثياب النساء تأخذ لون
الباستيل وتمتد حتى كعوبهم. إنها تريد الاحتذاء بهم وألا تتميز
عنهم فى شئ! المدينة جرداء تعلوها البنايات المرتفعة. والظلال
المرسومة، لا تعطى حياة للشوارع. أصبح كل شئ واضحاً
مضيئا. والوقت الذى تقضيه مع هؤلاء الأشخاص تبدو فيه
متعللة ومرتبطة بوقت اقترابهم، وبلحظة الفراق. لقد منحها هؤلاء
الأشخاص لحظات قليلة من حياتهم. وهذا يظهر بوضوح على
وجوههم من التصرفات التى تبدو عنهم... لكنها قرأت بمرارة
تجاهلهم لوجودها... هى شاردة بينهم. ومن الجلى أنها لا
تحظى بأى اهتمام أو مجرد سعى للاحتفاظ به... هى على يقين
بالتوازن الرقيق الذى يربط بين حياتها ونظرياتها... هناك
رسائل عديدة موجهة إليها ويجب ترجمتها لكن الجو المخيم على
المكان كان أكثر أهمية من الأشخاص أنفسهم ومن تحركاتهم
وتعبيراتهم للصور الخاطفة تتلاحق وتصلها على شكل أمواج
تتلمسها برقة، وتحاول بقدر المستطاع أن تلصقها فى ذاكرتها

التى تتسرب منها تلك الصور المتلاحقة وتصبح مشوشة. لقد استغرقت وقتاً إلى أن تداركت نفسها لتتحاشى فقدانهم، وتصبح غامضة! وأجبرت نفسها على النظر للصور التى تُعرض أمامها بشكل منفصل لكن الانتباه شمل الكل؛ بدون التوقف عند التفاصيل. بدأ الشكل النهائى لكل مشهد فى التفكك أمامها عندما تيقنت أنها هى التى ابتدعته. وأخذ ظلها فى إخفاء وشجب كل ما ابتدعته منذ لحظات قليلة وتوقعت استمراره طويلاً. وفى لحظة تأملها للعمل؛ يفقد بدوره تأثيره، ويعطيها الشعور بالأسف لعدم اكتمال الأشياء حتى نهايتها. وأخيراً فرضت عليها رؤية وحيدة لنفسها: السكون الذى أصابها داخل مقعد حديقة مصنوع من الخشب وهى ممسكة جيداً بالمساند واللون الأصفر يطغى على المكان، وشعورها بالوحدة يتضاعف... فى مقعدها تقاوم شيئاً لا تعرفه؛ ليست الرياح ولا قوة الشمس، ولا الألم الكامن فى جسدها بل شئ يتعلق بمقاومتها خوفاً من الاختفاء، والتلاشى التدريجى! فهى تخشى على نفسها من الانصهار كتلك الصور... بعد ذلك ذابت فى لون أصفر قاتم؛ ذكّرها برياح الصيف... رياح السكون التى يصاحبها أى صوت يمكن تمييزه وتكمن فى بعض النداءات وليس الصرخات الشديدة! إنها نداءات شخص يريد فقط إثبات وجوده بعيداً، دون أن نكتشف عن مكانه، أو ننضم إليه. هذا الشخص يريد فقط إخبار المسافر المفترض أنه ليس وحيداً مثلما يتخيل. كانت تُرى جامدة فوق مقعدها فى مهب الريح.

وتريد أن تتوغل أكثر فأكثر فى كثافتها وتبحث بيأس عن الوسيلة للوصول لذلك. وتعتقد أن الرياح تصيبها بالصمم وبالتالى يجب عليها الشعور بغياب النطق والصوت. فى وقت ما من حياتها كانت تتعرض لعدم الرغبة فى الحديث لكنها لا تريد أن تشعر بأنها مجبرة على ذلك. فهى تود الاحتفاظ بما تبقى منها. صمتها... لا يُرى مع غياب المتحدثين فى الضواحى. إنها متضخمة ومطوية فوق صخرتها، وتضع ذراعها بجانب جسدها وكأن الصمت نسيجها الجلدى... وعاشت دون ألم، ودون انتظار، فى حالة من الرفض الجذرى لأحاسيس جسدها وخوفها. وأثناء بحثها عن الصمت؛ حاولت الفصل بين التواجد الجسدى والصور... وبعد أن نجحت فى إيجاد وجود للصمت حاولت أن تعطى القوة للمحيط حولها. كانت الأدوات تتواجد تدريجياً، وتشكل شيئا مسطحاً... وصخب البحر يجمع هذا كله. وبعد لحظة أصبح شيئاً متكاملاً ومتلاحماً، وكان الفضاء داخل هذا الصخب قد تصلب وتداخلت هذه الأدوات واحتفظت بطابع السكون والوحدة. لقد تلاحقت السكينة واضمحل الحوار بسرعة خاطفة... حاولت أن تستفيد من الليل والشمس والصور. وانتابها إحساس بمعرفتها الوثيقة بالصمت أكثر من الآخرين الباقين وانهارت الجسور بينها وبين الآخرين مع تخلصها من جميع الخيوط والتى تشمل العبارات غير الصحيحة والتى تقال دائما بإدراك ووعى... ووجودها فى الصمت لا يقاس بقدر ما حدث لها داخل الليل... كانت تعتقد أنها تنشد ألا تُكتسح ولكنها

وجدت نفسها متشبعة بهذا التواجد الذى يكون الصمت مادته، وشعرت أن وراء ما تراه وخلف نشاط جسدها جسد خامد. وظلت كثيراً تراقب بحرص لمراقبته. كان لديها رغبة فى دمج الحالتين، اللتين تفتقدان للحياة وتلحق بالأخرى لتحياها...



الفصل السادس

هو الحزن رفيقى. إقامتى فى الدنيا رحيل وسفر بين موت وآخر. هذه المقولة أخذت فى ترديدها، فحياتها أصبحت كالماء لا يستقر على يد. لقد أسلمت جسدها لرماد النعوش. وتنتظر صعود الروح.

لقد أتت حاملة الموت، تنتظر وقتها ! لقد دخلت فى صحراء الحنان! وعوالم البحار متكئة على وحدتها، وصمتها المكتوب فى الروح.

هل كان مقدراً لها أن تدخل فى وحشاء تلك الليلة؟

لقد أدركت الرحيل وانتظرت نعوش السماوات وبياض البحار... الذى يلف الجسد بنسيجه، وعددت الذين سيمشون فى الطريق الترابى الذى رصفته الأجساد بعد ذلك.

فدائما كانت تشعر وكأنها غائبة وسط حضور... تحاول أن تتحدى المحو...

ولن تعرف فى لغتها الحروف الأربعة ر ب م ا !! فالأرض تحاول أن تأخذها إلى رحمها...

تلك الساعات التى مرت... طويلة...

تهيم فى الطرقات، باحثة عن نقطة ضوء ثقبت القلب.

فهى تجول فى غرف الريح، بحثاً عن طائر، سكن فى عينها ذات يوم... وقرر الرحيل!

فهى تجرب الأكوان، على أمل أن تدرك صورته التى شربت سواد الأقمار.

كيف يتمتع بحلاوة التلاقى، من يتوقع الفراق. لقد أصبحت الصخور شاهدة على انهياراتها، فهى لم تعد ترى صورتها على مرايا العالم. وحدى هنا...

لا أريد أن أكلم أحداً.

الشوارع التى تؤوى قلبى طوال النهار والليل مقبرة مؤجلة، وصديق غريب...

إننى أكتب نفسى. والموت نفسى... هو الآن صديقى الذى أحبه... بيننا لقاءات وعهود ومواعيد ومواثيق سابقة ومؤجلة. من سيعرفنى هنا.

كيف سيعرفون أنى أمشى فى شارع كذا... وشارع كذا...

لو سقطتُ فى ميدان الموت... من سيدركنى.

أظل أبداً لا يدركنى نهار. ولا يتنفس لى صبح. الليل سكنى وهو الذى يربطنى برائحة التراب ونبت الصحارى. فهى تشعر

وكأنها فى تيه... لا حدود له...

تاهت الخرائط... واختفى البشر.

الغريب يحن للغربة، يمضى وحيداً... يكلم نفسه... تتأتى أمامه الذكريات.... التواريخ والأرقام.

وحيدة هى... تمشى على شاطئ نهر القلق، تكلم الأرض...، لا الروح تسمعها ولا الطيور التى فوق رأسها تعرف من هى. من أى مكان جاءت. لقد أدركت أن العالم قد تغير والموت هو افتراق واتحاد!!

والحياة أيضا افتراق واتحاد!

وهى ما بين الموت والحياة تعيش الموت!

الحزن، صار رفيقها.

فهى تشعر وكأنها مدفوعة إلى الترحال... بقوة وبلا إرادة...

لقد أصبحت كالبئر الدفين .

اختلطت الأسرار... صار البحر ماءً خالداً .

لا تتحدث كثيراً... وأحيانا تكره الكلام، فهى لا تقوى على الفعل... وتلتزم الصمت، فالصمت ثورة على الكلام.

ماذا فى داخلها غير الصمت الكامن كالبركان... ما هذا الألم؟

طائرى يذوب فى طيور غريبة، غير معروفة.

ومن وقت لآخر يختلط البحر بالسماوات وكأنها لوحة واحدة وتقع عيناها على نجوم بعيدة تائهة، تبحث عن مكان فى هذا الكون الرحب الواسع. لقد أدركت بأن الموت سيدركها، والوقت يمر... كل شئ يتغير ويتبدل.

كانت حياتها من قبل تفيض بالإرادة والاستمرارية.

وكانت تحيا حياة سعيدة مع من تحب... فقلبها كان باتساع النهر، يرتوى منه الحبيب، يجلس فى حناياه ويجتاح كل قطرة دم فيه...

أما الآن فكل الأشياء تعود إلى لا شئ...

والموت هو سبيلها الوحيد.

لقد أسلمت نفسها إلى الليل... الصمت والظلمة، بعدها أخذت تتخيل مشهد الوداع .

شجن المساء كان ثقيلاً، كثيفاً.

الأيام الجميلة ذهبت...

ولا تبقى سوى الساعات القليلة... الثقيلة.

السماء تتشح بالسواد.

الطيور السوداء... هنا وهناك!!

فالظلمة... لا تتحول نوراً أبداً والنور لا يتحول ظلمة أبداً.

كل شئ أصبح غامضاً ومعتماً.

وفى تلك اللحظة تذكرت عبارة

«أى انتظار هذا...».

الفصل السابع

كانت تبدو فوق صخرتها مثل هيكل ثابت. أو كحيوان مائى أو نباتي. لا نستطيع أن نصنفها تحت أى مسمى بشرى.

ربما ترغب وهى ممددة فى ذلك المكان أن تستشعر الحالتين، ولا تحتفظ إلا بهما: جسدها كامن فوق الصخور التى كانت تتداخل فى بشرتها مع كل ما كانت تراه وتتخيله. وعيناها مغلقتان طوال الوقت. وعندما تفتحهما؛ تُفقد فى ضوء أبيض مائل للزرقة فيه قسوة وجموح، يتخلله تيارات وسُحب مضيئة تجمعت بطريقة موقوتة الانفجار. كانت العصافير تصرخ وتنتقل بأجنحتها الكبيرة فى تلك المغارة الزرقاء الشاسعة التى كانت هى خارجها فى الفضاء اللانهائى. وهناك امتدادات أخرى خارج هذا المكان الذى تتواجد فيه... الامتدادات تتعاقب إلى ما هو أقصى وأشد برودة. المحيط الجوى الذى يملأ تلك المغارة، والأصوات التى تتوارد إليها مثل صُراخ النوارس، كُل ذلك كان مفعماً بشئ من الحزن والنقاء: هذا هو الفضاء الفلكى فهى لا تعرف بالتحديد ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معنى لكنها ترددها؛ كوكبى... كوكبى... تلك الكلمة لها صدى فى رأسها... انتهت باكتشاف اللون الأزرق الفضى للسماء والأرض مجتمعين، كل ذلك تداخل بين جفونها المضمومة وبين جسدها والألوان والأصوات. لقد انطلق كل ذلك من محور واحد مجهول المادة، والمكان الذى تتواجد فيه؛ سهل المنال: إنه المكان الأول؛ الذى لا يحوى صفة النقاء، ولم يكن بقدر كبير من الاتساع كغيره والألوان كانت تطغى. إنها تشعر دائما بصعوبة الوصول

للآخرين بسبب المشاكل والعقبات، لتنتهى بها إلى ما لا نهاية وحينئذ تنهمر دموعها من كل مكان على وجهها مختلطة بلهيب الشمس وبالملح. لو أنها تخلت عن فكرة الألم والسعادة والأمل، ستفقد الدموع معناها؛ فهى تود أن تتخلص من الذاكرة لكى تبعد الأحزان نهائيا؛ ولكنها فى الوقت نفسه مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً وستنفجر الدموع من تلك الصلة الحميمة. ولو استطاعت أن تنسى المقارنة ودرجة اللون فلن ينتج عنها سوى شئ واحد، ولن تعرف الخوف ولا ذكرياته أبداً وستجد وجودها الحقيقى الهادئ. النتوءات فى جسدها تتلاشى تماماً مثلما تتطلب الساعة لكى تواصل حركتها بعض الوقت. إنها تشعر ببعض أنظار تتركز عليها، يظهرون لها الشفقة، لكن بخلاف ما نتعامل به مع البشر ولم يكن تأثرهم بنفس الدرجة؛ فهم لا يعرفونها... وهذا ما كانت تريده. بعد منتصف النهار، دخلت فى النوم أو أغشى عليها. وعند تيقظها شعرت بثقل فى رأسها. ولا تعرف أبداً أين هى. لم يعدها للواقع سوى صوته احتكاك الأحذية... أحست بوجود أصوات خفيفة مختلفة عن التى اعتادت عليها منذ أن مكثت فى مكانها. فهى تعتقد أنها لا تُرى إلا من خلال البحر والشاطئ الذى يوجد خلف الهضبة الجالسة عليها. فنحن لا نستطيع رؤيتها من الشاطئ الأول؛ لأنها تمددت خلف رصيف عالٍ، والوصول إليها لا يكون إلا بالتسلق بخلاف الشاطئ الثانى الذى يؤدى إليها ببساطة. لقد سمعت صوت سعال بجانبها وتأكدت من وجود شخص، كما رأت دخاناً من تحتها. هذا

المدخّن يتبع أسلوباً خاصاً؛ بتحريك حذائه فوق الصخرة مراراً ليسقط من عليها الطحالب العالقة بها مما أعطاها شعوراً بضخامة حذائه وفجأة؛ ظهر ظل ونهض واقفاً وانحنى ناحية سور الصخرة لكي يراها لكنها التصقت تماماً بها دون أن تفتح عينيها. فهي مراقبة بالتأكيد ولا تريد رؤية شئ وفضلت فى تلك اللحظة الموت على فتح عينيها. إنه سيؤذيها . لكن ماذا ستفعل؟ لقد لاحظ جسدها وإحساسها بالمرارة ولكن ماذا تنتظر هنا؟ إنها تخاف من بطش هذا الرجل بها، ولا تستطيع الهرب منه الآن. وما عليها إلا أن ينطفئ بصرها ويموت هو الآخر. ستمحى الصور والأفكار العالقة فى رأسها. وعندما فتحت عينيها، رأت صورة وجه شاحب، ذى شعر رمادى بفعل الأتربة العالقة به، وله عينان مستديرتان مسلطتان عليها بذهول. وسرعان ما اختفى الرأس سريعاً وظنت أنه كان من وحى إلهامها... هناك كان يوجد شخص جالس بجانبها منذ لحظات لكنه انصرف دون أن يراها... استمرت فى إغلاق عينيها حتى وقت الغسق، واستعادت شفافيتها مثلما كانت من قبل. وجاءت الشمس من أمامها على الصخور التى أصبحت جزءاً منها. وأتت الرياح إليها ودفعت قماش ثوبها وأعطتها الشعور باليأس والقنوط، وانتشر الظل والضوء فى كل مكان... والغسق هو نقطة الحياة بالنسبة لها والوجود قصير، فى تلك الساعة التى تفقد فيها النظرات أهميتها... وأخذت تفكر: إن نهاية العالم هذا المساء... لا شئ مهم يستطيع أن يبقيها على تلك الأرض ولا شئ تتعلق به. لقد

فُرضت عليها فكرة بقوة، وهى بمثابة احتجاج: «أنا لا أساوى شيئاً». وأخفت جسدها وروحها مع الكلمات. لقد تحدثت حتى لا يراها أحد أو يفكر فيها. استعادت ما قصته عليها أمها مرات عديدة... هذه الحادثة كانت قد وقعت فى الماضى على الشاطئ الثانى المتصل بصخرتها... كانت بعد الظهر وفى وقت متأخر جداً. وكانت أمها تصر على رجوعها مرة أخرى إلى مياه البحر لتغتسل فيه، وانتهت بالخضوع حتى سُحبت بفعل موجة شديدة ولم تكن تعرف السباحة وحاولت الإمساك بقدم أحد السابحين فى البحر. وقصت لها أمها بأنها رأتها ترحل... وبعد مرور ساعتين؛ رأت بعض الغوغاء بالقرب من الشاطئ ولكن بعيداً جداً وتساءلت عما يحدث... فقالوا لها: «إن طفلاً غرق... كان يرتدى مايوهاً أبيض!» وظنت الأم سريعاً بأنها ابنتها! ولكن عند استماعها جيداً لما كانت تقصه عليها أمها، انتابها إحساس بالاستغراب وكأن الكلام لا يخصها بل يعنى طفلاً آخر فارق الحياة منذ ساعتين. من الممكن أن يظل هذا الطفل فى عداد الموتى لولا أن أمه سمعت أن الطفل يرتدى مايوهاً أبيض. لكن أين كانت خلال تلكم الساعتين؟ وشعرت أن حياتها لا تخصها عندما قالت أمها: «إنه طفل يرتدى مايوهاً أبيض!». بمعنى أنها لا تستطيع أن تعيدها ثانية إلى الحياة. إذاً أى شخص يستطيع أن يفقدها وجودها. دون شك لم يجرب الآخرون الموت، ولا الضياع. و لو ألقت بنفسها من أعلى الصخرة لكانت ماتت، ومات الطفل الذى يرتدى المايوه الأبيض أيضاً. إنها تحتفظ

بداخلها من فوق صخرتها بشكل الطفل الساكن الذى لا يزال يتنفس. لقد رأيناه تحت الآلة التى أعادت له التنفس دون أن يدرى. هذا الطفل وهو ممدد كان يلغى كل الوجود، وبسببه ينبض المكان بالحركة فى كل لحظة. إنها لا تختزن سوى الصورة الأخيرة التى تَجُب دائماً ما قبلها. ولو تأكدت بأن خيطاً يصل الأشياء بعضها ببعض، والأشخاص والحركات والفضاء أيضاً؛ لوجدت من فوق صخرتها هذا الشكل، وعرفت هذا الطفل الساكن لكنها منسية مثله. لماذا لم ينقذوها من هذا الطفل؟ ودائماً ما تراه فى عينيها دون أن تعرف... طفل كما الموت. هذا الشكل فوق الصخرة يشبه البركة الساكنة. هو الشئ الوحيد الذى لا تراه منها ولا تريد أن تراه رغم أنها تتحدث عنه طوال الوقت. وكلما تكلمت عنه استطعنا كشفه أكثر. فهو دائما على وشك الظهور لا ينقصه شئ ويمتص ما يدور حولها من فوق صخرتها لذلك يجب أن تفرض الحصار على نفسها وعلى الذكريات والأحاديث والأفكار. فالأحداث تنبعث منها وتتصل بها. لقد مرت بتغيرات عديدة فوق صخرتها: أثبتت بهيئتها عدم انتمائها للحياة وتوشك بإلقاء نفسها فى الخلاء كما أصابها شعور بإصدار صيحات وطغت عليها فكرة أنها تستحق ما يصيبها، فهى لم تشعر بوجودها الساكن إلا عن طريق نظرات الأشخاص الذين يتفحصونها. وكيف كانت نظراتهم لها قادرة على تحويلها بهذا الشكل؟ بالتأكيد لأنهم يعرفون شيئاً عنها كانت قد نسيته، لكنهم لم يبتكروا جديداً. إن رداءتهم وعدم

مبالاتهم تتمثلان فقط فى أنهم يخفون ما شاهدوه وعرضوه... لم يتبق لها فوق الصخرة سوى سلبيتها، وشعورها بالوحدة، فالنظرة لم تعد تتبعها... وشعرت أنها سلبت من كل شئ بفظاعة... أمام الشمس. وبفعل تحركها الخفى، انتابها إحساس بالألفة مع الأشياء من حولها وكأنها شاهدتها ألف مرة. فهى لا تمثل سوى صدى أصواتهم. أصبح لكل شئ وزن ثقيل على الأرض والمجهود المتمثل فى السكون بين السماء والأرض انتهى بعملية عرض وتوزيع بين اللون الرمادى والسحب الكثيفة!

الفصل الثامن

لقد بدت هادئة منذ وقت طويل والوقت الذى خصصته لتغيير حياتها أصبح لا نهائياً. وإنها لا تتعجل وإنما ستبحث عن شئ تنتمى إليه. إن حياتها عبارة عن فصول، وقرارات مبتورة وأشياء ليست على الوجه الأكمل. لا شئ كامل، ولا مؤكد ولا حسن. ما الذى تمنته بصبر؟ هل هو الحب؟ لا.

من الممكن أن يتـــوقف الحب على ذلك الشئ المرغـــوب باستمرار؟

كانت تريد التفكير فى الاثنين معاً: حياتَها والحب...

وإن لم يكن كذلك فهناك شئ ينبغى تفسيره، وهو ما سينجلى بنقاء شديد مثل الأفق أمامها. ستلتفت وتتشكك مرة أخرى: يبدو أنها أصيبت بالجنون والدليل، تمرغها كالمتسولة أو كامرأة ضائعة شاردة... سيأتى رجال الشرطة للبحث عنها. والخوف الذى كان يصاحبها كأطرافها ويغشاها والذى يتواجد فى كل مرة تلتقى فيها بأحد، اختفى واستؤصل. إن الخوف الذى اختفى أصابها بالارتباك، وضايقها مثل السحابة الرمادية من تحتها والتي تمتص كل شئ. وتبدأ السحابة فى التحرك عندما تتحول بناظريها، كل حركة توحى بأنها التقطت من قبل... كان فى حياتها شئ تتبعه باستمرار. شئ ما فى مقصدها ومماثل للحلم... من الممكن؟... يجب أن تقوم بعزله. لقد قطعت وقتاً لتجد شيئاً محدداً، ولكنها أظهرت سعادة فى البحث، كما لو أنها تبحث فى كومة من مواد البناء. كانت حياتها تفيض من قبل

بالإرادة والتتبع المستمر والمحدد أيضاً. هل كانت تريد أن تصبح محبوبة وتنسى الآخرين وبلا معاناة، ثم تصبح مثلهم؟! بالطبع... هناك مقصد دقيق وشامل فى نفس الوقت والذى أعطاها التميز، وسيعطيها القدرة على التحمل لأى شئ ولكل شئ عندما تجده. لكن ماذا سيكون... وبعد إقصاء أحداث متوقعة كثيرة، أخذت تحدّث نفسها بكيفية الوصول إلى وحدتها... هكذا صيغ تفكيرها: وحدتي... وشعرت أخيراً بالعزاء... بعد ذلك مباشرة، تخيلت ممراً طويلاً لا ينتهى. لم يكن هذا الممر سوى جزء من مشهد طبيعى. إن اكتشافها وإحساسها بالسعادة اختلطا اختلاطاً وثيقاً وتعايشا مع فكرة أن المشهد الطبيعى لن يختفى وسيكون الكل. وهو حى بألوانه وبمعالمه البارزة. كان هناك شئ يوحى بالاحتراق فى معمعة التناقضات. واستيقظت وحدتها بتلك الطريقة وأصابتها بالحزن: الحصول على شئ واحد لتتأمله دون أن ينقصها شئ. وعندما تبعد عن الآخرين، لن تحتاج إلا لنظرتها لتتخيل ما سيحدث لها. كل شئ سيأخذ قواماً مختلفا... متيناً، وأكثر صلابة. لن يتبقى لها سوى نفسها، وما تتأمله دون أن يعترضها شئ. وعندما تتخيل وحدتها، تغشاها السعادة. وتتأتى إليها الذكريات... كانت تطوف هى وأندريه منذ ساعات فى يوم ممطر والوقت متأخر وشعرا بالجوع. الأمطار العنيفة دفعت واقية الريح... أغلقت عينيها من شدة التعب والضيق وتخيلت أنها ترى شكلاً مضيئاً على الطريق الأخرى وأن هذا الظل يقترب نحوهما.

وعندما ابتعدت السيارة عدلت من نفسها وهى ترتجف وتيقنت بأن الظلال لامرأة أشارت لهما فى الظلام. ورأت صديقها ذاهلاً وهو يكمل مسيرته. هل أدرك أنها امرأة؟ قطعت وقتاً طويلاً حتّى تنسى ما حدث. لماذا لم تجبر صديقها على العودة؟! من المحتمل أن تلك المرأة كانت فى خطر، ولكن إذا كان هناك شخص ما يختبئ فى الظلام وهو الذى يدفعها على إيقاف العربة، فلن تستطيع أن تشير إليهما، فهما لمحاها أعلى الشاطئ عند مدخل ضيعة صغيرة... ظلت مذعورة من هذا الخيال الذى ظهر واختفى. وانتهى بهما المطاف إلى قرية كبيرة تعلوها البنايات من جهتى الطريق الرئيسية وهناك مشربان لم يغلقا أبوابهما بعد وسكان القرية الذين كانوا يلعبون بورق اللعب لم يولوهم اهتماماً بالالتفات ناحيتهما عند دخولهما الصالة التى كانت تضج بالدخان والبخار والضوضاء... إنها من أسوأ الحانات الموجودة على طول الطريق... أصابها تشنج فى الفك وشعرت بالألم عند ابتلاعها للسندويتش... استغرقت وقتاً طويلاً لكى تهدئ من نفسها فوق صخرتها، وعندما أصبحت هناك نقطة ثابتة داخلها؛ تفجرت النظرات، وشعرت أخيراً بالأصوات والظلال. كيف ستصبح وحيدة، وكم حالة ستمر بها؟ هل سيحدث هذا ببطء، وهل ستجد صعوبة عندما تترك ما شغلها وارتبطت به؟! سيكون ذلك بمثابة الاقتلاع والعزق ، أو الشعور بالخطر.

وأخذت تتصور الطريقة التى ستنتابها: ستسلط النظر على أى شخص، وتتأمله لمدة طويلة. وتستمر فى الحديث معه.

ستبدأ بالفعل بسماع حديثه بينما يكون صوت الطرف الآخر المقابل لها يتفوه بكلمات مبهمة لا تعرفها والتى تصلها كهدية وهذا الصوت وتلك الكلمات لم يسمعها أى شخص... تلك الكلمات؛ بلا تفسير... لكنها تصل إليها دون حواجز أو قيود، إنها تنظر إليه دون ملل. فكيف يراها هو؟ إنه يريد أن تحبه... تيقنت أنه بلا عيون سوداء كما بدا لها فى أول الأمر؛ بل يكفيها ظله وصوته لكى تلتفت إليه، وتتحدث معه دون أن تفقده... لكنها ليست مجبرة على الإفصاح بكل شئ، وهو لا يستنتج الكلمات غير المنطوقة، ولا ينتظر شيئاً بالتحديد. فهى تتحدث كما يحلو لها بدون ضغوط أو حاجة... ومنذ تلك اللحظة؛ ظهر الآخرون مثل الغرباء. لكنها ستعرفهم إذا عادت للحياة الطبيعية وللمدينة. لم يستطع أحد أن يتيقن من ذلك مثلما تداخل وتشوش كل شئ فى حياتها وأفكارها. لم يعد لدينا شأن سوى طيفها وهيئتها الغامضة العاجزة. ما الذى يدفعها للعجلة ويشغلها لدرجة أنه أفقدها شفافيتها وحكمها على الأمور؟

أى خوف استطاع أن يجمع ويحشد كل هذا إلى أن أصابها بالعمى والصمم؟ يجب أن نمكث بعيداً عنها، ولا نعرف ماذا كانت ولا نتحدث إليها. لقد غلفتها منطقة من الغموض ومن الكلمات. إن رغبتها فى التحرر أصبحت قوية وهى فوق صخرتها. تمنت الموت حتى لا ينتابها الشعور بالخوف مرة أخرى. أصبح جسدها يتنفس سريعاً. وصخب البحر ولونه القاتم والقدرى أعطاها الشعور بأنها على صواب. وتركت

نفسـها تنزلق فى هذا الصـخب وتغرق فى اللون الأزرق المخيف اللانهائى. كانت تنتابها حالات تطغى عليها مثل الحزن وتقرب إليها مالم تفعله وما لم تحياه ولم يكن هناك حواجز خارجية حقيقية لكى تلتمس لها الأعذار. وعند شعورها فجأة بالألم؛ تيقنت أنه لا شئ يستحق التفكير فيه. إن السبيل الوحيدة لحيرتها وضلالتها هو اتخاذ قرار. وظلت تنظر إلى البحر ولانعكاساته على المياه. وعند بزوغ النهار ستعود إلى منزلها. ولكنها بحاجة لكل دقيقة من الليل لكى تنفصل عما أحياه النهار! لقد رأت ثلاثة أشخاص يتقدمون ببطء على حافة الشاطئ الثانى. وكانت ظلالهم طويلة ممتدة ومتماسكة مثل أجسادهم. كل شئ أصبح كالخلاء بينما هى تتبع بعينيها المتصلة بمجال الرؤى؛ الظلال الثلاثة والرمل والبحر. لقد تخيلت رؤية فسقية ضخمة اكتسى قاعها بالرمال والمياه التى تشبه تلك المسافة فى سكونها وجمودها الواحدة بالأخرى. ولا نستطيع التمييز بينهم سوى بالألوان. إن الحواف غير المتساوية للفسقية هى بالتحديد حدود الصخرة التى ترسم شكلاً مدرجاً لمسرح وحركة الهروب التى تشعر بها من حولها والتى تبدأ من الرمل لكى تصعد إلى قمة الحجر الأحمر... هى نتاج خطوات الأشباح الثلاثة الذين من خلال ظلالهم وأمواج البحر والرمل تنتج عنهم اندفاعات بسيطة تصل الكل وتعطيه صفة التنظيم. لقد التفت إليها أحدهم ورآها. ومن بعيد جداً، رأت أنه يُشير إليها بيده وهم يتحدثون عنها بينما الذى رآها أولاً كان يتأخرهم قليلاً وظل ينظر إليها

أثناء سيره؛لكن الأمر انتهى باختفائهم جميعاً وخيم الليل لكن القمر مازال هناك، لذلك لم يكن الظلام تاماً. إنها تنتظر زيارة... لا أحد يتحدث إليها أو يطلب منها شيئاً. انتظرت لساعات طويلة بصبر ودون خوف. لقد مثل هذا الحدث رجوعها إلى أرض الواقع ولن يكون قاسياً. ماذا ستكون بالنسبة لذلك الرجل؟ لن تذكر له شيئاً وهو لن يرى ما إذا كانت حسناء أم لا. لكنه سيطرح عليها السؤال دون شك، ويتساءل ماذا تفعل تلك المرأة هنا فى الليل، ويفكر فى المخاطرة التى تعرضت لها... استمرت فى الجلوس جامدة أمامه. غير مرئية... مجرد طيف! وكل الأفكار التى ستجول بخاطره، وكل الصور تطوف فوقها مثل السُحب و وابل المطر، أو مثل الكتل الثقيلة الخانقة: لكنها ستتحملها دون مبالاة. سيكون وحيداً يتخبط بكل ما يدور فى خاطره وذلك بفعل التشوش والبلبلة التى ستبدو منها بقسوة. هذا الشخص سيكون هنا أمامها... وشيئاً فشيئاً كل المشاهد التى شيدها، وكل المحاولات التى تخيلها للاقتراب من تلك المرأة ستتفكك وتنمحى. وعندما يفقد الثقة فى كل شئ؛ وعندما يفقد الوهم الذى منحته له وحب الاستطلاع سيصبح هو الآخر وحيداً. ولن نرى وقتها سوى هيئتين مشوشتين ومنفصلتين فى الليل. إذاً هى وهو سيفقدان الأهمية، ولن يبقى لهما سوى الذكرى الأولى للقائهما!

تمت

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ ـ يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
مدن الآخرين	أشعار ترجمة : أحمد ع. حجازى
صحراء التتار	رواية : دينو بوتزاتى ترجمة : موسى بدوى
الحب	رواية : مارجريت دورا ترجمة : د. فوزية العشماوى
أساطير	تأليف : رولان بارت ترجمة : سيد عبد الخالق
نشيد بحرى	شعر : فرناندو بيسوا ترجمة : المهدى أخريف
هبة الطوطم	أساطير الهنود الحمر ترجمة : راوية صادق
أزهار الشر	شعر : شارل بودلير ترجمة : محمد أمين حسونة
مرآة الحبر	نصوص : بورخيس ترجمة : محمد عيد أبراهيم
النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)	تأليف : رامان سلدن ترجمة : د. جابر عصفور
الشعر والتجربة	تأليف : أرشيبالد مكليش ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسى
رامبو وزمن القتلة	تأليف : هنرى ميللر ترجمة : سعدى يوسف
مداخل الشعر	تأليف : باختين . لوتمان . كوندراتوف ترجمة : أمينة رشيد . سيد البحراوى
باختين : المبدأ الحوارى	تأليف : تودوروف ترجمة : فخرى صالح

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ ـ يونيو ٩٧)

عراف الضوء	شعر للمكفوفين الإسبان ترجمة : إلهام عيسى
التأويل والتأويل المفرط	تأليف : امبرتو إكو ترجمة : ناصر الحلوانى
عصر البنيوية	تأليف : إديث كريزويل ترجمة : د. جابر عصفور
الدراسة النفسية للأدب	تأليف : مارتن ليندارو ترجمة : د. شاكر عبد الحميد
هبوط الليل	شعر : و. هـ. أودن ترجمة : د. ماهر شفيق فريد
الغرفة الفارغة	شعر : جاك آنصى ترجمة : محمد بنيس
قصيدة النثر	تأليف : سوزان برنار ترجمة : د. زهير مجيد مغامس
ساعى البريد يدق الباب مرتين	رواية : جيمس كين ترجمة : أحمد عمر شاهين
قصر الضحك	شعر : زبيجنيف هربرت ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم
الملاك الصامت	رواية : هاينرش بول ترجمة : طلعت الشايب
مصباح اللذات	الشعر الفارسى المعاصر ترجمة : محمد اللوزى
الأنا الآخر	قصص من أمريكا اللاتينية ترجمة : د. طلعت شاهين
السرير المائدة	شعر: بول إيلوار ترجمة : إدوار الخراط
همس الأمواج	رواية: يوكيو ميشيما ترجمة : مدحت محمد عبد العزيز
الدودة الهائلة	كافكا، الأعمال الكاملة ـ ١ ترجمة : الدسوقى فهمى
النقد الأدبى	مجموعة نقاد فرنسيين ترجمة : د. هدى وصفى

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٧ ـ يونيو ٩٨)

أغانى شيراز (ج ١)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشواربى
حرب مع السمندر	رواية: كارل تشابك ترجمة : حسين العامل
هذا هو الإنسان	تأليف : نيتشه ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد
منظورات	نصوص : چورچ حنين ترجمة: بشير السباعى
أغانى شيراز (ج ٢)	غزليات : حافظ الشيرازى ترجمة : د. إبراهيم الشواربى
رسائل إلى ميلينا	رسائل: كافكا ترجمة : الدسوقى فهمى
أكتب إليك من بلد بعيد	نصوص : هنرى ميشو ترجمة : سامى مهدى
السقوط على الأرض	أشعار : تيد هيوز ترجمة : سهيل نجم
بيانات السوريالية والأوانى المستطرقة	نصوص : أندريه بروتون ترجمة : صلاح برمدا
موجز تاريخ الاتحاد السوفيتى	تأليف : روچيه جارودى ترجمة : نورا أمين
تاريخ المسألة المصرية	تأليف : تيودور رتشتين ترجمة : عبد الحميد العبادى ومحمد بدران
الديمقراطية	تأليف : دليل بيرنز ترجمة : محمد بدران
امرأة فى الثلاثين	تأليف : مجموعة كتاب قصة ترجمة : علاء الديب

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٨ ـ يونيو ٩٩)

كتاب الطباع	تأليف : ثيوفراسط ترجمة : عبد الغفار مكاوى
شدو البلبل	قصص : ڤولڤجانج بورشرت ترجمة : سمير مينا جريس
الطفل المنبوذ	تأليف : ميلان كونديرا ترجمة : رانية خلاف
عدوى اللدود وأحلى سنين	روايتا : ويللا كاثر ترجمة : ايزابيل كمال
الصراع مع الملاك	شعر : جاك بريڤير ترجمة : سامى مهدى
نهاية العالم هذا المساء	رواية : كاترين دو ريشو ترجمة : شيرين محمود الخطيب

فى الأعداد القادمة

محاكمة ترابيس

شهر العسل المر

التراث والتطور

الحرير

لماذا نقرأ الأدب الكلاسيكى

قراءة الرواية

فن الرواية

الغول

إشـــارات

المؤلف : كاترين دو ريشو

روائيـة فرنسيـة ولدت عام ١٩٥٠، درست علم النفس وتوغلت فى عذابات البشر. كتبت عديداً من القصص وحصدت جوائز كثيرة رغم صغر سنها. كتبت (نهاية العالم هذا المساء) عام ١٩٨٨ ونالت جائزة الكتاب فى فرنسا تقديراً لها.

المترجمة : شيرين محمود الخطيب

ليسانس آداب لغة فرنسية ١٩٨٩ جامعة عين شمس. لها ترجمات من اللغة العربية إلى الفرنسية، وتترجم نصوصاً شعرية فى برنامج سحر البيان بإذاعة الشرق الأوسط.

الفنان : عصمت داوستاشى

فنان مصرى سكندرى، تخرج فى فنون جميلة اسكندرية ١٩٦٧ وهو نسيج وحده وسط الفنانين المعاصرين إذ يثور على ذاته دائماً وعلى نمطية الحياة من حوله، فيتفرغ للفن وحرية الإبداع. ولوحة الغلاف من معرضه (وجوه) التى حاول فيها التعامل مع شكل الوجه البشرى كواحة من الأسرار لاستكشاف كنوزه الجوانية .



رقم الإيداع

٩٨/١٥٠٨٩

المركز المصرى العربى

ت : ٥٨١٥٦٠٧

نهاية العالم هذا المساء

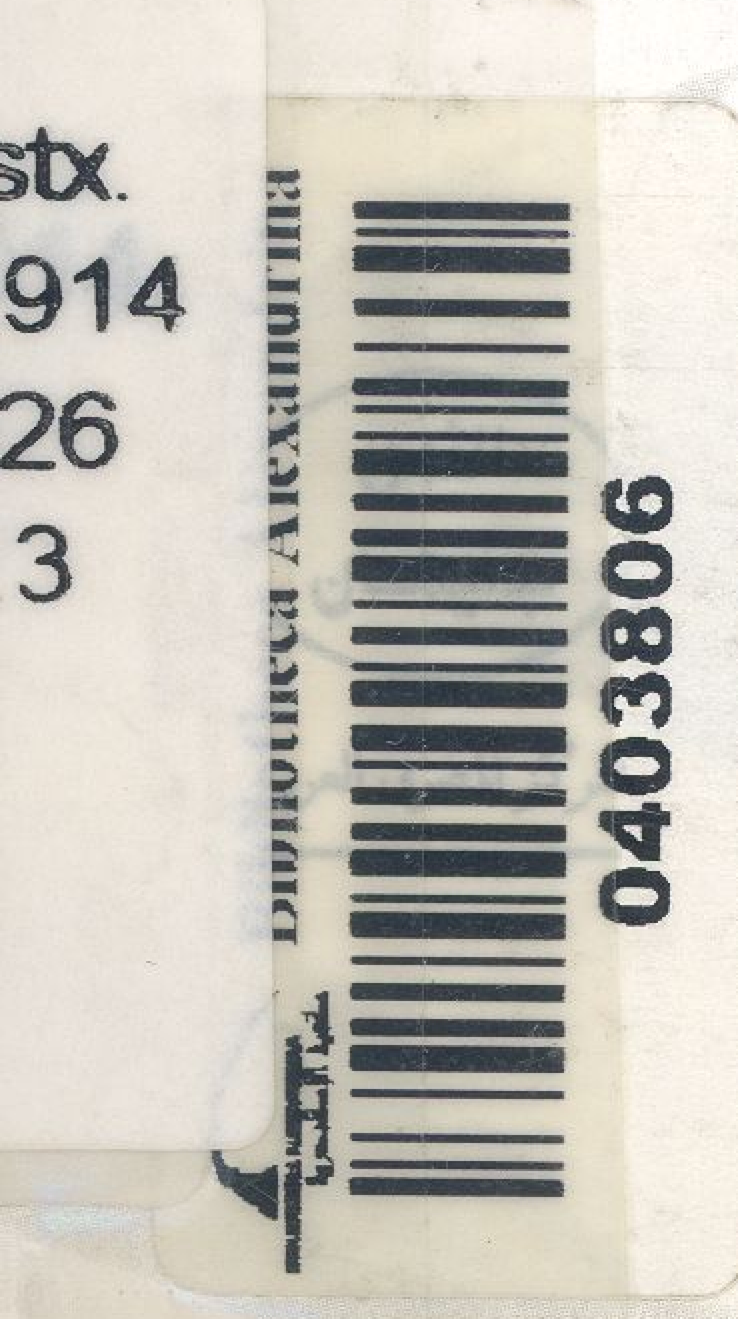
فى واحدة من الروايات المهموسة أو «اللارواية» أصلاً، تهيم بنا كاترين دو ريشو فى سرد ضبابى ناعم بلا أى أحداث تقريباً، يشى بعالم امرأة وحيدة تم هجرها منذ يومين، فهى تفقد هدوءها وسكينتها وسلام أحوالها، تسير حول البحر لا ترى إلا ألوانه الباهتة ويأسها الشاحب يغلفها معه:

(كنا نرى تلك المرأة، ونظراتها متجهة إلى ما لا نهاية تجاه جذر شجرة، أو بقع من الصدأ تعلو أحد الأبواب أو الحوائط... فى حاجة إلى التنقل بحثا عن مكان ما، أو لإعادة انتعاشها... وتكمل سيرها. تركت، نفسها واقفة فوق المرفأ يلفحها ويحرقها الهواء المالح لساعات طويلة. كان عليها أن تبذل مجهودا لكى تتحاشى الأماكن التى عرفاها معاً، فهى بمثابة حياتها التى تفقدها الآن. خلال أيام سيتوحد مع الطرق والأماكن والمقاهى، سوف تجده فى كل شئ... وعليها أن تبحث عن مكان جديد لا يحمل آثاره.)

هكذا الحال بالمرأة، وهى تعيش أو تدبر الخلاص، الخلاص من أيّما وضعٍ وإلى أيّما وضع تصير عليه:

(استغرقت وقتاً طويلاً لكى تهدئ من نفسها فوق صخرتها، وعندما أصبحت هناك نقطة ثابتة؛ تفجرت النظرات، وشعرت أخيراً بالأصوات والظلال. كيف ستصبح وحيدة، وكم حالة ستمر بها؟) ★

C'est la fin du monde ce soir


stx.
914
26
3
Bibliotheca Alexandrina
04403806